يقظة الروح

في تعزيز المناعة الروحية

ح حسن موسى الصفار، ١٤٤٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الصفار، حسن بن موسى بن رضي
يقظة الروح في تعزيز المناعة الروحية / حسن بن موسى الصفار ـ القطيف، ١٤٤٢هـ
٢٤٦ ص؛ ٢١,٥ × ١٤,٥سم
ردمك: ٣-٧٤٢٤-٠٣-٦٠٣-٩٧٨
١ـ الوعظ والإرشاد أ.العنوان
ديوي ٢١٣ ١٤٤٢/٨٥٨١
رقم الإيداع: ١٤٤٢/٨٥٨١
ردمك: ٣-٧٤٢٤-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٣هـ ـ ٢٠٢١م
القطيف ـ المملكة العربية السعودية

أطياف للنشر والتوزيع
هاتف / فاكس: ٨٥٤٩٥٤٥ (١٣) ٩٦٦ +
القطيف - شارع القدس
ص.ب ٦١٢١٥ القطيف ٣١٩١١
المملكة العربية السعودية
E-mail: Atyaf.qatif@gmail.com

حسن موسى الصفار

يقظة الروح

في تعزيز المناعة الروحية

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

مقدمة ٩

الفصل الأول: خط المواجهة ١٣

ضغط الشهوة وقوة الإرادة ١٥

الثبات على المبدأ ومقاومة الضغوط ٢٣

الالتزام الديني والأجواء المفتوحة ٢٩

العفاف.. ضبط الغريزة وترويضها ٣٧

الخواطر السيئة والحذر من الانزلاق ٤٣

الطموح سبيل الرفعة والشهوات طريق السقوط ٤٧

التطلعات المعنوية وتسلل الشيطان ٥٥

تضليل الذات ٦٩

ذكر الله ثراء روحي وانضباط سلوكي ٧٧

روادع المعاصي لطف إلهي ٨٣

التوبة حتى لا يصبح الذنب مسلكًا ٨٩

الفصل الثاني: مناطق الخطر ٩٧

تنمية الحساسية تجاه الذنوب ٩٩

كيف نعصي الله بنعمه؟ ١٠٥

المعاصي والذنوب في الخلوات ١٠٩
المبادرة إلى الإقلاع عن الخطأ ١١٣
أكل المال الحرام ١٢٣
محاصرة المعصية ١٢٩

الفصل الثالث: الحياة الأخرى ١٣٥
تطلّع الإنسان للخلود ١٣٧
مواجهة الأخطار المستقبلية ١٤٥
هل فكرت في مستقبلك الأخروي؟ ١٥١
ذكر الآخرة حافز نشاط ومقوّم سلوك ١٥٧
العمل الصالح ثروة الآخرة ١٦١
لا مجال للتنصل أمام الله ١٦٧
حتى لا نندم يوم القيامة ١٧٣
الوقاية من عذاب الله ١٧٩
لماذا العذاب والنار؟ ١٨٥

الفصل الرابع: محطات روحية ١٩٩
الدعاء مكاسب مضمونة ٢٠١
معطيات الدعاء ووساوس القنوط ٢٠٧
المناجاة انفتاح على الله تعالى ٢١٥
الاستخفاف بالصلاة ٢١٩
في رحاب الزمن المبارك ٢٣٣
المحتويات ٢٤٧

مقـدمـة

لا يزال العالم منذ نهاية عام ٢٠١٩م يخوض مواجهة شرسة ضدّ فيروس كورونا ـ كوفيد ١٩، وقد تحملت البشرية خسائر فادحة خلال هذه المواجهة المستمرة حتى الآن، حيث فتك هذا الفيروس بحياة قرابة مليوني إنسان، وعبث بصحة ما يزيد على تسعين مليونًا، وأصاب كل أبناء البشر بالقلق والأذى النفسي، وسلبهم بهجة الحياة.

أما الخسائر الاقتصادية بسبب هذه الجائحة فتقدر بأكثر من (١٢) تريليون دولار.

وكانت خطة العالم في مواجهة هذا الوباء الخطير تركز على الاحترازات الوقائية، لمحاصرة انتشار هذا الفيروس، بالتأكيد على التباعد الاجتماعي، وارتداء الكمامات، وغسل اليدين، واستخدام أدوات التعقيم.

كما توجه الخبراء في علوم الطب والأحياء لدراسة طبيعة هذا الفيروس وعلاج الإصابة به، وإنتاج اللقاحات التي تعزز مناعة الجسم لمقاومته، ورصدت أضخم الميزانيات لإنتاج هذه اللقاحات

وتوزيعها، لأنّ آمال السلامة والخلاص، وإنقاذ العالم من حال الشلل والاضطراب معلّق على تحقيق المناعة عبر هذه اللقاحات، التي أصبح اقتناؤها وتحصين المواطنين بها أولوية الدول والحكومات.

إنّ المواجهة مع الفيروسات الوبائية التي تغزو الأجسام، يجب أن تلفتنا إلى معركة أخرى كثيرًا ما نغفل عنها، وهي معركتنا ضد الفيروسات الوبائية التي تصيب الأرواح والنفوس.

تلك الفيروسات تتمثل في الرذائل الأخلاقية والاعتلالات النفسية، التي تُفقد الإنسان إنسانيته، وتهمّش عقله ووجدانه، وتهبط به من مستوى (أحسن تقويم) الذي أراده الله له، إلى (أسفل سافلين)، حيث ينقاد لأهوائه وشهواته.

إننا ندرك آثار الفيروسات والأوبئة على أجسامنا، وما تسببه من أضرار في حياتنا، لذلك نستنفر جهودنا لمقاومتها، ونسعى لتحصيل المناعة تجاهها.

لكننا نغفل عن خطر الأوبئة الروحية، والأمراض الأخلاقية، مع أنها الأشدّ ضررًا على وجود الإنسان وحياته، فهي سبب الانحراف والفساد والإجرام والظلم والعدوان في حياة البشر.

وكما أنّ وجود الفيروسات التي تصيب الأجسام ظاهرة طبيعية، فإنّ وجود الأوبئة الأخلاقية التي تصيب الأرواح، هو الآخر أمر تقتضيه طبيعة الحياة الدنيا، كدار ابتلاء وامتحان، وساحة تأهيل لتحصيل الكمال الروحي والمعنوي.

وهنا تبدو أهمية الاحتراز عن الذنوب والمعاصي وتعزيز المناعة الروحية لدى الإنسان، ليقاوم تسلل الأوبئة الأخلاقية وتوطينها في نفسه، كما هو الحال في أهمية تعزيز المناعة الجسمية لمقاومة الفيروسات والأمراض.

وهذه هي المهمة الأساس للدين والرسالات السماوية، حيث تركز على تزكية النفس وتهذيب الروح، وإحياء الضمير والوجدان، وتفعيل دور العقل.

إنّ الدين هو الذي يؤكد المعنى والغاية في حياة الإنسان، عبر الإيمان بوجود الخالق الحكيم والربّ الرحيم، فيدرك الإنسان أنه كائن مسؤول، وأنه تحت رعاية ربّه ورقابته، وأنّ حياته الدنيا ممر ومعبر لحياة أخرى هي دار الحساب والجزاء والخلود.

وهذه الصفحات المتواضعة بين يدي القارئ الكريم، تحمل قبسات من هدي الدين، وإثارات من وحي العقل، بهدف تعزيز المناعة الروحية، وتحصين النفس من تأثيرات الأوبئة الأخلاقية، أعظ وأذكّر بها نفسي، وأرجو أن تكون موعظة وذكرى لغيري، استجابة لأمره تعالى حيث يقول: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ومنه تعالى أرجو التوفيق والقبول.

حسن الصفار

٢٨ جمادى الأولى ١٤٤٢هـ

١٢ يناير ٢٠٢١م

الفصل الأول : **خط المواجهة**

ضغط الشهوة وقوة الإرادة

إنّ وجود الشهوات والغرائز في نفس الإنسان يُعَدّ محركًا أساسيًّا لنشاطه وفاعليته في هذه الحياة. ولولا وجود الغرائز والشهوات لما اندفع الإنسان يكابد الأهوال في كلّ اتجاه، فحبّ الإنسان لذاته وسعيه للتملك، وتطلعه للرقي والتقدم، ووجود الرغبة والشهوة لديه، هو ما يدفعه لهذه الفاعلية والنشاط الذي يقوم به في هذه الحياة.

وفي الوقت نفسه تُعَدّ هذه الغرائز والشهوات ساحة امتحان للإنسان، وميدان اختباره، ذلك أنّ الإنسان يقف بين اتجاهين، بين كبت هذه الشهوات، وهو ما يمكن أن يشلّ حياته، وبين إطلاق العنان لها فيخرج عن حدود إنسانيته، وينحرف عن طريق الكمال، حتى يصبح كسائر البهائم التي تعيش غرائزها وشهواتها.

لقد كرّم الله سبحانه الإنسان بأنْ زرع فيه الطموح والتطلع نحو الكمال، ولا يستطيع أن يبلغ مراقي الكمال إلّا إذا استطاع أن يضبط غرائزه وشهواته، وهنا الابتلاء والامتحان في هذه الحياة.

تنمية وتصليب الإرادة

لقد أنزل الله سبحانه وتعالى الشرائع السماوية لكي تساعد الإنسان على تلمّس حالة الانضباط. بحيث يمارس حياته بفاعلية، ويستجيب للرغبات والشهوات الموجودة في نفسه، من أجل إعمار الحياة، لكنه في الوقت نفسه لا يكون منساقًا مع الشهوات والرغبات على حساب كماله وسموّه الإنساني، من هنا يحتاج الإنسان إلى التزام الشرائع السماوية، كما يحتاج إلى الوعي والإرادة، اللذين يساعدانه على الانضباط.

وعلى امتداد تاريخ البشرية، كانت هناك جهات شغلها الشاغل تحريض الشهوات والغرائز في نفس الإنسان. وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿وَاللَّـهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾، فالله سبحانه يريد للناس التوبة، فيما تعمل بعض الاتجاهات على الدفع بالناس ليميلوا نحو الشهوات والغرائز ميلًا عظيمًا.

من حق الإنسان أن يمارس غريزته وشهوته ولكن ضمن حدود، فإذا ما انحرف وتجاوز تلك الحدود ومال (ميلًا عظيمًا)، على حدّ تعبير الآية الكريمة، فذلك ليس في مصلحته ولا يخدم إنسانيته. وعلاوة على التحريض الخارجي للإنسان باتجاه الانغماس في الشهوات، يساعد على ذلك وجود حالة الضعف الذاتي عند الإنسان، وقد وصف الله هذه الحالة بقوله سبحانه: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾،

والضعف المشار إليه في الآية، هو الضعف أمام الشهوات والغرائز، والمطلوب في مقابل هذا الضعف، التحلّي بالوعي والتسلح بالإرادة، وإلّا فسيكون الإنسان ضحية لضعفه الطبيعي أمام شهواته وأهوائه.

التحريض على الشهوات تجارة

يبدو أنّ الجهات التي تدفع بالبشر نحو الغرق في الشهوات والغرائز، تعيش اليوم عصرها الذهبي. فهؤلاء الذين وصفتهم الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾، يعيشون قمة نشوتهم في زمننا الراهن، فالجهات التي تحرك الأهواء والشهوات عند الناس، باتت تستفيد من التطور العلمي، والتقدم التكنولوجي، عبر مختلف الوسائل المتاحة، من أجل أن تحرّك الشهوات والأهواء عند الجمهور، وعلى أوسع نطاق ممكن. ويدفعهم بهذا الاتّجاه سببان:

الأول: أنّ هؤلاء أنفسهم ممن يتبعون الشهوات، ويريدون أن تتوفر لهم الأجواء لممارسة أهوائهم ورغباتهم، وكلما اتّسعت الفرص أمامهم فهذا يصبّ في صالح ميولهم الغرائزية.

الثاني: السعي نحو الكسب المادي والربح التجاري، فتحريض الشهوات وإثارة الغرائز بات اليوم تجارة تدرّ الأرباح، ومصدرًا كبيرًا من مصادر الدخل، وتحقيق الثراء. ويكفي النظر إلى الكمّ الهائل من المواقع الإباحية على شبكة الإنترنت، التي بلغ عددها أكثر من أربعة ملايين ومئتي ألف موقع إباحي، ويمثل ما يقرب من ١٢ بالمئة من مواقع

الشبكة العنكبوتية!.

وذكر إحصاء آخر أنّ هناك فلمًا إباحيًّا جديدًا يجري إنتاجه في الولايات المتحدة وحدها كلّ ٣٩ دقيقة، وهذا بخلاف الأفلام الإباحية التي يجري إنتاجها في أماكن أخرى في العالم. كما تفيد الإحصاءات عن حجم الأموال التي تنفق في هذا المجال، بأنّ هناك ثلاثة ملايين وسبعمئة وخمسين ألف دولار تنفق في كلّ ثانية على المواد الإباحية، ما يشير إلى حجم التجارة المحمومة التي تعمل خلفها جهات تجدّ في نشر أجواء الشهوة والإغراء وتحريض الغرائز.

الاحتماء بالأجواء الصالحة

أمام هذا الكمّ الهائل من وسائل الإغراء يحتاج الإنسان إلى أمرين أساسيين:

أولهما: تنمية وتصليب الإرادة الذاتية في نفسه أمام ضغط الشهوات، والأمر الثاني، هو: التواجد في الأجواء الصالحة، بغرض تخفيف الضغط الغرائزي؛ ذلك لأنّ الإنسان سيبقى في معركة دائمة داخل نفسه، إذا ما ظلّ يعيش أجواءً ملؤها الإغراء والإثارة، وهو على الأرجح ما سيجعله يضعف وينهار في نهاية المطاف، وهذا عين ما ذكره سبحانه تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾، من هنا على المرء أن يهتمّ كثيرًا بالأجواء التي يعيش فيها، بحيث تسودها الحشمة.

ولعلّ إحدى المشاكل في هذا الصدد هي التساهل في مسألة الاحتشام، بدءًا من داخل الأسرة. متناسين أنّ أجواء الحشمة ينبغي

أن تبدأ بالمنزل، فمن الدّارج أن تتصرف الأم أو البنات والأولاد على سجيتهم، دون ملاحظة هذا الجانب؛ لكونهم يعيشون أجواء المنزل والعائلة، غافلين تمامًا عن أنهم بشر يعتريهم ما يعتري الآخرين. ويكفي الإشارة هنا إلى ما تشير إليه العديد من الدراسات حول أسباب الانحرافات، وخاصة الجنسية منها، نتيجة ضعف أجواء الاحتشام داخل المنزل.

إنّ القرابة العائلية لا تبرر الابتذال والتراخي في التزام الحشمة حتى بين الإخوة والأخوات، بحيث يظهرون أمام بعضهم على نحو الإثارة، سواء في الملبس أو عرض المفاتن، فذلك أمر بالغ السوء والضرر، ويشمل ذلك الأم بطبيعة الحال، وسائر الأقارب، الذين يتواجدون في مكان واحد، إذ ينبغي مراعاة أجواء الاحتشام، لما لفقدانها من تأثير سلبي على الأولاد، حتى وإن لم يكن ملحوظًا عند الآخرين، فأغلب تلك التأثيرات النفسية الطبيعية لا يتحدث عنها الأولاد ولا البنات، لكن ذلك لا ينفي انعكاساتها السلبية.

من هنا ينبغي أن تسود الأجواء المحتشمة باستمرار، سيما أثناء الاجتماعات العائلية الموسعة، التي يحضرها سائر الأقرباء من الأخوال والخالات، والأعمام والعمّات، وأبناؤهم وبناتهم. أضف إلى ذلك النأي عن الانسياق خلف بعض العادات الدخيلة، من قبيل السماح بدخول العريس إلى قاعات الأفراح النسائية يرافقه بعض الرجال، فهذا أمر مرفوض لما له من تأثيرات سلبية كبيرة ووقوع في

المحرمات والآثام.

الحذر من مواقع التواصل الاجتماعي

ينبغي للإنسان أن يتعاطى مع وسائل الإعلام على نحو حذر. فلربما دفعت المرء نفسه إلى النظر والبحث عمّا يثير الغرائز عبر مختلف الوسائل، تساعده في ذلك وساوس الشيطان، التي ربما استدرجه بذريعة حبّ الاستطلاع، كما لو أنّ هذا الإنسان محصّن وبعيد عن التأثر بما سيراه في تلك المواقع والقنوات.

كثيرًا ما وصلتنا الشكاوى من وقوع فتيات في براثن الرذيلة نتيجة الانسياق خلف محاولات الاستدراج، والأمر نفسه يحدث مع شباب أوقعوا أنفسهم في علاقات مشبوهة تحت مزاعم إرشاد وهداية الفتيات، علاقات ظنّوا أول الأمر أنها ستكون بريئة إلّا أنها قادتهم إلى الرذيلة، وهذا من خداع وأحابيل الشيطان التي حذّرنا الله منها بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾، فعلى الإنسان أن يكون حذرًا فلا يخدع نفسه ولا ينخدع.

إنّ هناك نصوصًا دينية كثيرة تؤكّد بشدة ضرورة أن يشحذ الإنسان إرادته أمام شهواته.

فقد ورد: «إِنَّمَا سُمِّيَ الهوى هَوًى، لأَنَّهُ يَهْوِي بِصَاحِبِهِ»[1]، وعن

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري شمس الدين القرطبي. تفسير القرطبي، ج١٦، ص١٦٧، عن الشعبي.

الإمام عليّ عليه السلام أنه قال: «الشَّهَوَاتُ مَصَايِدُ الشَّيْطَانِ»[١]، سواء في استماع صوت لا يحلّ الاستماع إليه، أو النظر إلى صورة لا ينبغي النظر إليها، أو الوقوع في مراسلات تقود إلى الرذيلة، أو مشاهدة فلم يدفع للانحراف، فهذه بأجمعها أول مصائد الشيطان، ولا يعلم إلّا الله عواقب ذلك.

وعنه عليه السلام أنه قال: «مَنْ تَسَرَّعَ إِلَى اَلشَّهَوَاتِ تَسَرَّعَتْ إِلَيْهِ اَلْآفَاتُ»[٢].

كما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «رُبَّ شَهْوَةِ سَاعَةٍ تُورِثُ حُزْناً طَوِيلاً»[٣]، فربما لم تدم الشهوة إلاّ برهة من الزمن إلاّ أنها ربما أوقعت المرء في هوة سحيقة ومأزق كبير.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: « غالِبِ الشَّهْوَةَ قَبْلَ قُوَّةِ ضَراوَتِها، فَإِنَّها إنْ قَوِيَتْ مَلَكَتْكَ، وَاسْتَقادَتْكَ، وَلَمْ تَقْدِرْ عَلى مُقاوِمَتِها »[٤].

(١) علي بن محمد الليثي الواسطي. عيون الحكم والمواعظ، ص٦٥.
(٢) عبدالواحد الآمُديّ التميمي. غرر الحكم ودرر الكلم. ص٣٣٧، حكمة ٤٨٤.
(٣) الشيخ الطوسي. الأمالي، ص٥٣٣.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٢٦٨، حكمة٥.

الثبات على المبدأ ومقاومة الضغوط

إنّ الثبات على المبدأ في مواجهة الضغوط والصعوبات المختلفة، هو الشعار الذي ينبغي أن يتحلى به الإنسان المؤمن في هذه الحياة. فالإنسان بطبعه يرتاح لرضى الآخرين عنه، فمتى ما عاش في محيط اجتماعي راضٍ عنه، كان ذلك سببًا لراحته النفسية.

على المؤمن أن يترك لدى الآخرين السمعة الحسنة والانطباعات الطيبة عن نفسه، غير أنّ الشيء المهم ألّا تكون نظرة الناس لنا هي معيار التقويم للذات ولسلامة المنهج، وإنما يكون وفقًا لمعيار المبادئ ومدى الالتزام بها بالدرجة الأساس، أما رأي الناس فينا مدحًا أو ذمًّا فذلك ما يجب أن يأتي في المرتبة التالية. ينبغي للإنسان المؤمن أن يقيّم نفسه على أساس المبادئ والقيم.

إنّ رضا عامة الناس ربما يكون سهل المنال، متى ما التزم الفرد توجهًا يستهوي هذه العامة. ولكن السؤال الأهم: هل هذا الاتجاه يتطابق مع المبادئ والقيم؟. حقيقة الأمر، لا ينبغي للمرء أن يسير على منهج معيّن لمجرد خطب ودّ الآخرين، فرضى الآخرين لا ينبغي أن

يكون هو الهدف. إنّ هدف المؤمن هو رضا الله تعالى، وأن يكون ملتزمًا هذا المبدأ. ومن المفهوم أن الإنسان المؤمن ومن خلال سلوكه الحسن مع الآخرين يسعى لجذب رضاهم، وكسب السمعة الحسنة بينهم، بالالتزام بحسن القول، وطيب السيرة، وسلامة السلوك، وليس بالتنازل عن مبادئه، فالمبادئ والقيم العليا ينبغي أن تبقى بعيدة عن الشك لمجرد عدم قناعة الآخرين بها.

إنّ التمسك بالمبادئ العليا التي يؤمن الإنسان بها عن قناعة وعلم حجة عليه، فلا يقبل منه بأيّ حالٍ التنازل عمّا اكتشفه وتبيّن له. هذا يذكرنا بعالم الفلك الإيطالي الشهير (غاليلو) الذي توصل إلى حقيقة أن كوكب الأرض ليس إلّا جرم سماوي متحرك، ولا يمثل مركز الكون كما كان الاعتقاد السائد في الأوساط الدينية الكنسية في تلك الآونة، لكن (غاليلو) لم يتنازل عن تلك الحقيقة العلمية التي توصل لها رغمًا عن الكنيسة والحكومة والرأي العام الذي كان بالضد منه تمامًا.

وصية من الإمام الباقر

جاء عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال في وصيته لجابر بن يزيد الجعفي: «إِنْ مُدِحْتَ فَلاَ تَفْرَحْ، وَإِنْ ذُمِمْتَ فَلاَ تَجْزَعْ، وَفَكِّرْ فِيمَا قِيلَ فِيكَ، فَإِنْ عَرَفْتَ مِنْ نَفْسِكَ مَا قِيلَ فِيكَ، فَسُقُوطُكَ مِنْ عَيْنِ اَللَّـهِ جَلَّ وَعَزَّ أَعْظَمُ عَلَيْكَ مُصِيبَةً مِمَّا خِفْتَ مِنْ سُقُوطِكَ مِنْ أَعْيُنِ اَلنَّاسِ، وَإِنْ

كُنْتَ عَلَى خِلاَفِ مَا قِيلَ فِيكَ، فَثَوَابٌ اِكْتَسَبْتَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتْعَبَ بَدَنُكَ»[١].

ومقتضى قول الإمام أنه إذا لامك الناس وكان الحقّ معك فذلك ثواب لك، تلك هي سيرة الأولياء والصالحين حينما يسمعون كلامًا سيئًا بغير حقّ، فإنما يقولون هذا ثواب بالمجان حصلنا عليه.

ويستمر الإمام في تأكيد هذا المفهوم والمبدأ بالقول: «واعلم أنك لا تكون لنا وليًّا حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك (مجتمعك) وقالوا إنك رجل سوء، لم يحزنك ذلك، ولو قالوا إنك رجل صالح لم يسرك ذلك، ولكن اعرض نفسك على كتاب الله فإن كنت سالكًا سبيله فإنه لا يضرك ما قيل فيك، وإن كنت مباينًا للقرآن فماذا الذي يغرك من نفسك؟».

إذًا فالمبدأ والمعيار الذي يجب أن يلتزم به الإنسان المؤمن، هو كتاب الله لا كلام الناس الذي غالبًا ما يكون خاضعًا للأهواء والميول.

لقد عاصر الإمام محمد الباقر، خامس أئمة أهل البيت عليهم السلام، الطغيان الأموي في أقسى مراحله، لكنه كان مثالًا للثبات على المبدأ ومقاومة الضغوط. فقد شهد في حداثة سنّه مأساة كربلاء، وهو بعد لم يكمل السادسة من عمره، وبعد ذلك عاصر عددًا من الحكام الأمويين، ورأى ظلمهم وطغيانهم، إلى عهد هشام بن عبدالملك حيث التحق بالرفيق الأعلى سنة ١١٤هـ عن عمر ناهز ٥٨ عامًا.

---

(١) ابن شُعبة الحَرّاني. تحف العقول. ص٢٨٤.

مواجهة الضغوط الاجتماعية

هنا لا بُدّ أن نؤكد على أمرين:

الأول: إنّ على الشاب المؤمن والفتاة المؤمنة اللذين قد يعيشان في محيط سيئ، أن يلتزما بمبادئهما وقيمهما وأحكام دينهما، وألّا يتأثرا بالضغوط الاجتماعية التي قد تواجههما، وألّا يستسلما لقول من هنا أو اتهام من هناك بالرجعية أو التعقيد.

نحن اليوم نعيش زمنًا قد تضغط على الإنسان فيه أجواء الفساد والانحراف، وقد تدفعه نفسه للانسياق حتى لا يكون شاذًّا عن محيطه، وأكثر من يواجه هذا التحدي هم الشباب الذين يعيشون في أوساط بعض الثلل، فيرون أنّ الانحراف هو السمة السائدة فيمن حولهم، وهنا قد يرى الشاب نفسه شاذًا عن هذا الجمع والجو، وما عليه هنا إلّا أن يستحضر مثل هذه الوصايا للإمام الباقر، وكما ورد عن الإمام علي عليه السلام: «فلا يؤنسك إلّا الحق ولا يوحشك إلّا الباطل»[1].

الثاني: إنّ على المصلحين وذوي الرأي في المجتمعات، ألّا تهتز ثقتهم بأنفسهم، لمجرد إعراض الناس من حولهم، وعدم اقتناعهم بآرائهم. فالمصلح له رأي ووجهة نظر هو مقتنع بها، ولكن من حوله إما لأنهم لم يدركوا هذا الرأي الذي لديه ولم يتفهموه، أو أنهم يعيشون تحت تأثير عوامل أخرى، ومراكز قوى تؤثر على عقولهم وتوجهاتهم، هنا قد يجد المصلح نفسه محاصرًا بآراء تخالف رأيه ومعتقده، فعلى

(١) محمد بن يعقوب الكليني. الكافي. ج٨، ص٢٠٧.

صعيد التكتيك من حق المصلح أن يداري الناس، وأن يتصرف بما يتناسب مع ظرفه وموقفه، ولكن على المستوى الداخلي النفسي لا ينبغي أن تهتز ثقته بنفسه، ولا أن يتزلزل؛ لأنّ الناس من حوله لم يقبلوا كلامه، إنما عليه مداراة الناس وتقدير استيعابهم، ومدى تقبلهم للرأي الجديد، دون أن يدفعه ذلك للتشكيك في قناعاته انسياقًا خلفهم، حتى لا يصبح مصداقًا للآية الكريمة ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ وكما ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام: «لاَ تَكُونَنَّ إِمَّعَةً، قُلْتُ: وَمَا اَلْإِمَّعَةُ؟ قَالَ: لاَ تَقُلْ أَنَا مَعَ اَلنَّاسِ»[1].

على الإنسان أن يلتزم مبادئه، وألّا يخضع للضغوط الخارجية، فإنّ الأنبياء عانوا أكثر من ذلك وقد اتهموا بالجنون والسحر، وتفرّق الناس عنهم، وعلى غرار ذلك كان الأمر بالنسبة للأئمة والمصلحين والأولياء، كلّ ذلك ينبغي أن يكون درسًا للإنسان يؤكد الثقة في نفسه، ومبادئه التي آمن بها عن حق، فلا تهتز نفسه ولا يضطرب ولا يتزلزل.

(١) الشيخ المفيد. الأمالي، ص٢١٠، حديث٤٧.

الالتزام الديني والأجواء المفتوحة

قد يلتزم الإنسان بحكم شرعي أو سلوك أخلاقي؛ لأنّ القانون والنظام يفرض عليه ذلك، كما يقول المثل العربي المعروف (مكرهٌ أخاك لا بطل)، وهو مثل يضربونه لمن يبرز للقتال دون شجاعة منه، لكنه مجبر لمبارزة الطرف الآخر.

وهي درجة من درجات الخير، في مقابل من يخالفون النظام ويتحايلون على القانون.

وقد يعيش الإنسان في بيئة اجتماعية تسودها الأجواء المحافظة والالتزام الديني، فيلتزم دينياً وأخلاقياً بدافع التكيف مع الجوّ الاجتماعي؛ لأنّ مخالفته لعادات وأعراف المجتمع تكلّفه شيئاً من سمعته، وهذه أيضاً درجة من درجات الخير، في مقابل من يتمردون على الأجواء الصالحة التي يعيشون ضمنها، ويتجرؤون على المجاهرة بالمعاصي.

وقد لا تكون المعصية متاحة أمام الإنسان، فيكفُّ عن المعصية بالمعنى المجاز، فهي غير متاحة له، ولا يتمكن من ارتكابها، وهذه

درجة من درجات الخير. كما ورد عن علي عليه السلام: (من العصمة تعذّر المعاصي)، أي إنها درجة من درجات العصمة بالمعنى اللغوي.

البعض يستهجن ويتعجب حين يسمع عن بعض الوزراء أو المسؤولين في بعض الحكومات الذين يستغلون نفوذهم وسلطتهم ويسرقون من خزينة الدولة وأموال الشعب!!

ولو سأل الواحد منّا نفسه: لو كانت هذه الفرصة متاحة لي، هل كنت أمتنع عن ذلك؟! هنا يكون التحدي.

في إحدى محاضرات الشهيد السيد محمد باقر الصدر حول الإمام الكاظم عليه السلام، وهي موجهة لطلبة العلم، يتساءل ويقول: (نحن نقول بأننا أفضل من هارون الرشيد، أورع من هارون الرشيد، أتقى من هارون الرشيد، عجباه! نحن عرضت علينا دنيا هارون الرشيد فرفضناها حتى نكون أورع من هارون الرشيد؟!

يا أولادي، يا إخواني، يا أعزائي، يا أبناء علي، هل عرضت علينا دنيا هارون الرشيد؟!

لا.. عرضت علينا دنيا هزيلة، محدودة، ضئيلة، دنيا ما أسرع ما تتفتت، ما أسرع ما تزول، دنيا لا يستطيع لإنسان أن يتمدد فيها كما كان يتمدد هارون الرشيد، هارون الرشيد يلتفت إلى السحابة يقول لها أينما تمطرين يأتيني خراجك، في سبيل هذه الدنيا سجن موسى بن جعفر عليه السلام، هل جرّبنا أن هذه الدنيا تأتي بيدنا ثم لا نسجن موسى بن جعفر؟ جربنا أنفسنا، سألنا أنفسنا، طرحنا هذا السؤال على أنفسنا، كلّ

واحد منّا يطرح هذا السؤال على نفسه، بينه وبين الله. إنّ هذه الدنيا، دنيا هارون الرشيد كلفته أن يسجن موسى بن جعفر، هل وضعت هذه الدنيا أمامنا لكي نفكر بأننا أتقى من هارون الرشيد؟!)[1].

فهذه حالات ثلاث تدفع الإنسان لترك المعصية والانحراف:

- عدم توفر إمكانية فعل المعصية.
- وجود القانون الرادع.
- التكيف مع البيئة الاجتماعية.

وقد كانت مجتمعاتنا الإسلامية المحافظة سابقاً تتوفر على هذه الأمور بدرجات متفاوتة، لكن هذه العناصر الثلاثة بدأت تضعف وتتلاشى في كثير من المجتمعات الإسلامية.

لم يعد القانون يرى نفسه معنيًّا بمراقبة القضايا الأخلاقية والشرعية، وأصبحت البيئة الاجتماعية تعيش حالة من الانفتاح على أنماط وألوان من السلوكيات والثقافات والإغراءات المختلفة، كما أنّ إمكانية الوصول إلى المعاصي أصبحت متاحة، مع توفر الفرص والوسائل.

الرهان على المناعة الذاتية

بقي الرهان على وعي الإنسان وإرادته، هذا هو الخيار والرهان الأساس لمن يهتم بالالتزام الديني.

(١) السيد محمد باقر الصدر. التفسير الموضوعي والتفسير التجزيئي في القرآن الكريم، ص٢٥٦.

كثير من المتدينين يزعجهم أن يروا بعض المنكرات، أو يروا التساهل القانوني تجاه بعض المخالفات، ولكن ينبغي ملاحظة تغيّر الوضع العالمي وتأثيره على مجتمعاتنا المحلية، فعلينا أن نتجه إلى الأسلوب المتاح والأمثل، وهو الرهان على تنمية الوعي والإرادة في نفس الإنسان، فهذا ما يحصنه عن الوقوع في المعاصي والانحرافات.

البعض يظنّ أنّ هذا القول مثالي، فإذا توفرت الإغراءات، وكانت الأجواء مفتوحة، ولم تكن هناك روادع قانونية، فكيف نحصن الناس؟ وهل يكفي التوجيه والمحاضرات؟!

إنها لا تجدي نفعاً!!

لكننا نجد تجمعات دينية إيمانية تعيش في مناطق مفتوحة في العالم كأمريكا وأوروبا، تتوفر فيها المعاصي والإغراءات وتسمح بها الأنظمة والقوانين، ومع ذلك يلتزم المتدينون هناك بدافع ذاتي.

وهو دليل على أنّ الإنسان إذا أراد الالتزام يستطيع ذلك، مهما كانت الإغراءات، صحيح أنه يحتاج إلى درجة أكبر من مجاهدة النفس، وترويض الأهواء والشهوات، وهو ما ينبغي أن نعمل من أجل تحقيقه.

القرآن الكريم يقدم لنا نموذج نبي الله يوسف عليه السلام، وهو شاب في مقتبل العمر، يعيش في بيت تتوفر فيه أعلى درجات الرفاهية والإغراءات، وزوجة عزيز مصر تدعوه إلى نفسها، لكنه يمتنع ويأبى.

إنّ القرآن الكريم يبرز هذا المثل، حتى يقول لنا: إنّ الإنسان

يستطيع أن يصل الى هذا المستوى، يقول تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[سورة يوسف، الآية: ٢٣].

ونجد مثل هذه الصور في حياة الأنبياء والأئمة، وكلّنا قد سمع الكلمة الخالدة لأمير المؤمنين علي عليه السلام: «واللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا ـ عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُه»[1]

قد يقول البعض: إنّ هؤلاء أئمة وأنبياء!!

ونقول: هناك أناس عاديون قاوموا الإغراءات والمعاصي، وبين فترة وأخرى نقرأ في الصحف أنّ عاملاً كادحاً فقيراً يجد مبلغاً من المال، فلا يستسيغ أخذه، بل يبحث عن صاحبه، وأنّ صاحب سيارة أجرة ضعيف الحال ينسى بعض الركاب في سيارته أشياء ثمينة، بإمكانه مصادرتها، لكنه يتعفف عن ذلك ويسلمها للشرطة، نجد مثل هذه العناصر الطيبة في بلادنا ومختلف دول العالم.

لا بُدّ أن نراهن في هذا الزمن على إرادة الإنسان، وتعزيز الوازع الديني في نفسه.

فجوهر الدين يتمثل في تنمية إرادة الإنسان وخلق المناعة الداخلية في نفسه تجاه الإغراءات والمعاصي، كي يلتزم أخلاقيًّا وقيميًا، وحسب التعبير الديني يتصف بالورع، وهو (الكف والانقباض) أمام

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٢٤.

المعصية، ونجد في القضايا الصحية خير مثال على (النفور الداخلي)، إذا وجد الإنسان طعاماً لذيذاً يحتوي على الميكروبات أو القذارة، فإنّ نفسه تنفر منه ولا تقبل عليه، حتى وإن كان شكله ومنظره جذاباً.

وحديث رسول الله ﷺ يقول: «مِلَاكُ الدِّينِ الْوَرَعُ»[١] أي جوهره ومحوره، وفي حديث آخر عنه ﷺ: «رَأْسُ الدِّينِ الْوَرَعُ»[٢].

وجاء عن رسول الله ﷺ: «مَن لَم يَكُن لَهُ وَرَعٌ يَرُدُّهُ عَن مَعصيَةِ الله تعالى إذا خَلا بها لَم يَعبَأِ الله بسائرِ عَمَلِهِ»[٣].

وورد عن الإمام علي عليه السلام: «إنَّما الوَرَعُ اَلتَّحَرّي فِي المَكاسِبِ، وَالكَفُّ عَنِ المَطالِبِ»[٤].

اعتقال مسنّة عمرها (١٠٤) أعوام

نشرت الصحف عن امرأة مسنّة في بريطانيا عمرها حوالي مئة وأربع سنوات، اتصلت بالشرطة، تطلب اعتقالها، فطوال حياتها لم ترتكب مخالفة، وتتمنى أن ترى نفسها في صورة من يخالف النظام! قالوا لها: وما المطلوب؟!

قالت: تأتون وتعتقلوني وكأني مخالفة.

---

(١) علاء الدين علي المتقى بن حسام الدين الهندي. كنز العمال، ج٣، ص٣٠، حديث ٧٣٠٠.
(٢) المصدر نفسه. ج٣ ص٤٢٧، حديث ٧٢٨١.
(٣) المصدر نفسه. ج٣، ص٤٣٠، حديث ٧٢٩٩.
(٤) عيون الحكم والمواعظ، ص١٧٨.

وقد لبّت الشرطة رغبتها، وأرسلوا سيارة واعتقلوها، في جوٍّ من الفكاهة والضحك!![1].

يجب أن يراهن الإنسان على الوصول إلى مستوى المناعة من ارتكاب الأخطاء، ليس فقط في الأمور الدينية (المحرمات والمعاصي)، بل حتى في المخالفات القانونية كأنظمة المرور وقضايا البيئة والنظافة، وما يخالف الذوق العام.

لا ينبغي أن يلزمك أحد حتى تراعي الذوق العام، ينبغي أن يكون لديك وعي متحضر وإدراك بحيث تندفع بذاتك نحو الالتزام، ومراعاة الأنظمة والقوانين.

وقد خطب رسول الله ﷺ متحدثاً عن فضائل شهر رمضان فقام أمير المؤمنين علي عليه السلام، وقالَ: «يَا رَسُولَ الله، مَا أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ فِي هَذَا الشَّهْرِ؟

فَقَالَ: يَا أَبَا الْحَسَنِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ فِي هَذَا الشَّهْرِ الْوَرَعُ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[2].

أن ينمّي الإنسان في نفسه هذه الملكة، وهي الرسالة العميقة للصوم كما يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ هذه هي الحصانة والمناعة الداخلية.

---

(١) https://ar.le360.ma/monde/146800

(٢) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار، ج٤٢، ص١٩٠.

العفاف.. ضبط الغريزة وترويضها

لا تتكامل شخصية الإنسان في هذه الحياة إلّا من خلال مواجهة التحديات، وإحراز النجاحات في الامتحانات التي يتعرض لها؛ لأنه بذلك يفجّر طاقاته ويزداد ثقة بنفسه، ولذلك فإنّ الله تعالى جعل الإنسان معرّضًا للتحدي من داخل نفسه، حيث تتشكل نفس الإنسان من مجموعة غرائز عارمة مندفعة، تتطلب من الإنسان قوة وإرادة لكبحها، وهذا ما يجعله وجهًا لوجه أمام التحدي، وهنا يكون الامتحان، فهل يستطيع اجتيازه بنجاح؟

ليس المطلوب من الإنسان كبت شهواته، فلها وظائفها الإيجابية حينما تمارس بالطريقة الصحيحة، ولكن المطلوب هو الاقتصار في إشباعها ضمن الحدود المشروعة، وعندنا في النصوص الإسلامية مفاهيم ومفردات تشكل مفاتيح لهذا الالتزام القيمي ومن تلك المفاهيم (العفاف).

العفاف يعرف بأنه ضبط الشهوات، بأن يكون عند الإنسان ضوابط في ممارسة شهواته ورغباته، وقدرة للسيطرة عليها. حين يتاح له

مجال ممارسة الشهوة لكنه يمتنع؛ لأن تلك الممارسة خارج الإطار المشروع هذا يسمى عفيفًا، الله تعالى يخبر عن نبيه يوسف الذي كان في ريعان وعنفوان شبابه، كيف تعفف أمام إغراءات أجمل امرأة في مصر هي امرأة العزيز: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [سورة يوسف، الآية:٢٣].

من أبرز الشهوات السائدة بين بني البشر هما شهوة الجنس وشهوة المال، لذا جاء التأكيد على ضبط هاتين الشهوتين.

شهوة الجنس

هذه الشهوة والغريزة تنطلق من أعماق نفس الإنسان، وخاصة في مرحلة عنفوان الشباب، مرحلة المراهقة، في هذه الفترة تكون الغرائز الجنسية عند الشاب مندفعة عارمة متأججة، وقد لا يكون من اليسير عليه أن يتوفر على الطريق المشروع لإشباع هذه الغريزة، أو قد يتوفر الطريق المشروع لكن طبيعة هذه الغريزة جامحة فيصعب السيطرة عليها، لذلك تجد أنّ بعض من يبتلون بالانحراف أشخاص محصنون، لديهم زوجات، لكن عنفوان هذه الغريزة مع عدم السيطرة وضعف الإرادة تكون مدعاة لتعدي الحدود والضوابط، سيما في هذا العصر الذي تكثر فيها المغريات، ويسهل فيه الوصول إلى الشهوات.

الإنسان الذي لا يتوفر له الطريق المشروع لتصريف طاقة غرائزه، عليه أن يكون ممسكًا بأزمة شهواته، يقول تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[سورة النور، الآية:٣٣] قد لا

يتوفر لك الطريق المشروع دائمًا أو مؤقتًا بسبب ما، كالغربة أو العجز المادي، فعليك أن تتحصن بمستوى عالٍ من العفة.

شهوة المال

الأمر ذاته قائم تجاه شهوة المال، فالإنسان بطبعه يحب المال والثروة: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾[سورة آل عمران، الآية:١٤] حب الإنسان وطلبه للمال والثروة ليس في حدود الحاجة فقط، ورد في حديث عن رسول الله ﷺ: «مَنْهُومَانِ لاَ يَشْبَعَانِ، طَالِبُ دُنْيَا، وَطَالِبُ عِلْمٍ»[١]. ترى بعض الناس عنده من الخير والثراء ما يكفي لميزانية دولة، لكنه يجور على حق عامل ضعيف، لا لحاجة، لكن نهم حب المال يدخله في هذه الحالة، لذلك يحتاج الإنسان إلى يقظة وإرادة ليفلح في الانفلات من أسر شهوة المال الطاغية، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئك هم المفلحون﴾[سورة الحشر، الآية: ٩].

على الإنسان أن يمتلك القدرة للسيطرة على شهواته، حتى يكون عفيفًا، فـ«أَفْضَلُ اَلْعِبَادَةِ اَلْعَفَافُ»[٢] كما يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، ويقول أيضًا: «اَلْعَفَافُ يَصُونُ اَلنَّفْسَ وَيُنَزِّهُهَا عَنِ اَلدَّنَايَا»[٣]؛ لأنه إذا انطلق الإنسان وراء شهواته فلن يقف عند حد، وخاصة في الجانب

(١) الكافي. ج١، ص٤٦.
(٢) المصدر نفسه. ج٢، ص٧٩.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم.

المالي. بعض الناس متدينون يؤدون الصلاة والصوم، ويبتعدون عن المحرمات كالخمر والزنا، لكنهم يضعفون أمام حب المال والثروة، فيجورون على حقوق الآخرين وعلى المال العام.

وفي مجتمعاتنا وبلداننا الكثير من التلاعب بالأموال العامة، الموظف حينما يجد أمامه فرصة توفر المال بين يديه، ويعتبرها أموال الدولة، فيأخذ منها ما شاء، ما دام هناك ضعف في الرقابة، وينسى أو يتناسى أنها أموال الشعب كله، وليس له وجه حقّ في أيّ فلس يأخذه. لقد أصبح الفساد مستشريًا في مختلف الأرجاء والدوائر، تتاح الفرصة للموظف العادي، ويرى ضعف الرقابة، ويلاحظ من فوقه ينهب ويسرق، فيتمادى هو كذلك، لأنه لا يستطيع الصبر أمام هذه المغريات، الإمام علي عليه السلام يقول: «اَلصَّبْرُ عَنِ اَلشَّهْوَةِ عِفَّةٌ»[1].

قد يجد الإنسان صعوبة في الصبر عن المعصية أو الخطأ، لكنه إذا جاهد نفسه وعودها سوف يسهل عليه الأمر «اَلْعِفَّةُ تُضْعِفُ اَلشَّهْوَةَ»[2] كما يقول الإمام علي عليه السلام.

قوة الإرادة أمام الشهوات

كلما مارس الإنسان العفة تقوّت إرادته، وما أحوج كلّ إنسان إلى قوة الإرادة، التي تتوفر عن طريق أمور وأسباب:

الأول: الارتباط بالله تعالى، فقراءة القرآن والإكثار من الدعاء،

(١) الميرزا حسين النوري. مستدرك الوسائل. ج١١، ص٢٦٣، حديث ١٢٩٤٥.
(٢) المصدر نفسه. ج١١، ص٢٧٥، حديث ١٢٩٨٧.

ومراقبة الله تعالى، والصلاة، كلها أمور تقوي صلة الإنسان بالله تعالى وتمنحه فرصة للتأمل والتفكر.

الثاني: الوعي، يقول الإمام علي عليه السلام: «مَنْ عَقَلَ عَفَّ»[1]. العاقل يعرف أنّ للحرام لذة عاجلة، ولكن ماذا بعد هذه اللذة؟! «تزول اللذة وتبقى التبعة» سوف يرى نفسه أمام مشاكل تقضّ مضجعه، ومن أهمها لوم النفس وتوبيخها: ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [سورة القيامة، الآية:٢] كما يقول تعالى في كتابه الكريم.

الثالث: الأجواء الصالحة، على الإنسان ألّا يُضعف إرادته بالحضور في الأجواء الفاسدة، فالشيطان لا ينقل الإنسان مرة واحدة للحرام، وإنما بالتدريج، لذلك يقول الله تعالى: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ حيث يتدرج الشيطان مع الإنسان خطوة خطوة، يُهوّن له الأمر في البداية، ثم يرغبه له، ثم يوقعه فيه، وكل خطوة يتقدمها الإنسان مع الشيطان يكون التراجع عليه أصعب، لذا على الإنسان أن يلتفت للأمر من البداية ويرفض الاستجابة من اللحظة الأولى.

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم.

الخواطر السيئة والحذر من الانزلاق

مسيرة الإنسان في هذه الحياة تتطلب منه أن يؤدي امتحانًا دائمًا، يظل ينتقل من امتحان إلى آخر حتى يلقى ربه الكريم. وهذه هي العلة من خلق الإنسان في الحياة، وهذا ما يبينه عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾[سورة الإنسان، الآية:٢]، ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[سورة الملك. الآية:٢]. كلّ إنسان معرّض للامتحان، ويبقى في مواجهة هذا التحدي الدائم، فهو يعيش ثنائية المادة والروح، والعقل والشهوة. وطبيعة الحياة فيها ما يستثير الدَافعَين أمام الإنسان. كما أنّ طبيعة خلق الإنسان تجعله عرضة لتحدٍ دائم، حيث يتكون من نفخة روح تشده إلى السمو والرفعة، وقبضة من تراب تشده إلى الانحطاط والسقوط. في أعماقه شهوات تدفعه للانحراف، وعنده عقل يدعوه إلى الصمود والمقاومة والثبات.

هذا صراع حتمي بين سمو الروح وانحطاط المادة، وبين إرادة العقل وإغراءات الشهوة، يظل الإنسان يواجهه دائمًا وأبدًا. والإمام زين العابدين عليه السلام يذكرنا بهذا الصراع الذي يعيشه الإنسان يقول عليه السلام

في مناجاته: «إلهِي أَشْكُو إلَيْكَ عَدُوّاً يُضِلُّنِي، وَشَيْطانَاً يَغْوِينِي، قَدْ مَلاَ بِالْوَسْواسِ صَدْرِي، وَأَحاطَتْ هَواجِسُهُ بِقَلْبِي، يُعاضِدُ لِيَ الْهَوى، وَيُزَيِّنُ لِي حُبَّ الدُّنْيَا، وَيَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ الطَّاعَةِ وَالزُّلْفى»[١].

وكون الإنسان مؤمنًا بالله تعالى، لا يعفيه من الامتحان، بل قد يكون أكثر بلاءً. الإنسان الذي ينتمي إلى السلك التعليمي حتى لو كان متفوقًا إلّا أنّ ذلك لا يعفيه من خوض الامتحان كبقية الطلاب. الإمام الصادق عليه السلام يقول فيما روي عنه: «إن الشياطين أكثر على المؤمنين من الزنابير على اللحم»[٢]. بل إنّ المؤمن هو الشغل الشاغل للشياطين، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أيضًا: «لقد نصب إبليس حبائله في دار الغرور فما يقصد فيها إلّا أولياءنا»[٣].

طائف من الشيطان

والسؤال هنا، من أين تبدأ المعركة؟ إنها تبدأ من هواجس وخواطر تختلج في نفس الإنسان. الآية الكريمة تقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [سورة الأعراف، آية: ٢٠١] وهذا تأكيد على أنّ المؤمن معرض للامتحان وتربص الشياطين به. ومعنى قوله: ﴿طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ الطائف أصله ما يطوف حول الشيء، وكأنّ الهواجس تدور حول الإنسان المتقي، وتتربص به

(١) الصحيفة السجادية، مناجاة الشاكين.
(٢) بحار الأنوار. ج ٧٨، ص ٢١١.
(٣) تحف العقول. ص ٢٢١.

الدوائر. فماذا يعمل المؤمن في هذه اللحظة؟

عليه أن ينتبه لها من بداية الأمر ويقاومها، وإلّا فسيكون أسير قبضة الشيطان. وكيف ينتبه لها؟ تجيب الآية الكريمة، بذكر الله تعالى: ﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾. وذكر الله تعالى لا يكون باللسان فحسب، بل بتذكر أنّ الله عزّ وجلّ سميع عليم يرى ويسمع كلّ شيء، وأننا منه وإليه، وسوف يحاسبنا. وإذا تذكر الإنسان ربه أبصر أمره ودربه: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾. الهوى والرغبة تمنع الرؤية الصحيحة، فلا يرى الإنسان عندها الجوانب السلبية فيما يهوي ويرغب، لكنه إذا تذكر الله عزّ وجلّ تزول عنه هذه الغشاوة، فيعي أمره قبل أن يقع في المحذور.

فلا بُدّ للإنسان أن يواظب على ذكر الله في كلّ لحظة، حتى لا يركن إلى وساوس الشيطان. الروايات عن أهل البيت عليهم السلام تشير إلى مواطن مهمة ينبغي التركيز على ذكر الله تعالى فيها، منها:

١. **عند الغضب**: ففي حالة الغضب ينفعل الإنسان، وتشتد حركة طائف الشيطان حول نفسه، لتدفعه نحو تصرفات ارتجالية، وقد يندم عليها لاحقًا. فقد يقوم بعمل إجرامي أو شيء يشينه.

في الرواية «لما دعا نوح عليه السلام ربه عزّ وجلّ على قومه أتاه إبليس لعنه الله فقال: يا نوح، إنّ لك عندي يدًا أريد أن أكافيك عليها، فقال له نوح عليه السلام: إنه ليبغض إليّ أن يكون لك عندي

يد، فما هي؟ قال: بلى، دعوت الله على قومك فأغرقتهم فلم يَبْقَ أحد أغويه فأنا مستريح حتى ينسق قرن آخر وأغويهم فقال له نوح عليه السلام: ما الذي تريد أن تكافيني به؟ قال: اذكرني في ثلاثة مواطن، فإني أقرب ما أكون إلى العبد إذا كان في إحداهن: اذكرني إذا غضبت، واذكرني إذا حكمت بين اثنين، واذكرني إذا كنت مع امرأة خاليًا ليس معكما أحد»[1].

٢. **عند ثورة الرغبة والشهوة**، على الإنسان أن يذكر الله وأنه رقيب عليه وأنّ عذابه شديد، حتى لا يقع تحت أسر الهوى والشهوة، وهو ما أشارت إليه الفقرة الأخيرة من الرواية.

٣. **عندما يهم بعمل الخير**: إذا أراد الإنسان أن يعمل خيرًا فعليه أن يبادر لعمله، فإنّ الشيطان يحول بينه وبين ذلك الأمر. جاء في الرواية «أنّ إبليس أوصى نبي الله موسى عليه السلام: إذا هممت بصدقة فامضها، فإذا همّ العبد بصدقة كنت صاحبه دون أصحابي حتى أحول بينه وبينها»[2]. قد يتشجع شخص ما تزوره لتعرض عليه عملًا خيريًّا، ولكنه إذا لم يُعْطَ منذ البداية فإنه سيكون عرضة لطائف الشيطان، فقد يقلّل من عطائه، ولربما امتنع عن العطاء.

---

(١) بحار الأنوار. ج ١١، ص ٣١٨.
(٢) المصدر نفسه. ج ٦٩، ص ١٩٧.

الطموح سبيل الرفعة والشهوات طريق السقوط

الهمة العالية هي الطريق الأقصر نحو الرفعة وسمو المقام عند الله وبين الناس. فكلما ارتفعت لدى الإنسان درجة الطموح والتطلع نحو الخير وتحقيق الإنجازات الكبيرة، حلّق بنحو تلقائي، في آفاق العلو والرفعة. لذلك ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «مَا رَفَعَ امْرَأً كَهِمَّتِهِ، وَلا وَضَعَهُ كَشَهْوَتِهِ»[1]، وفي نص آخر ورد عنه عليه السلام: «مَنْ رَقى دَرَجاتِ الْهِمَمِ عَظَّمَتْهُ الأُمَمُ»[2]. وإذا ما تأملنا أسماء العظماء وذوي المكانة والرفعة في المجتمعات المعاصرة والغابرة، فسنجد خصلة مشتركة بين هؤلاء العظماء، هي أنهم كانوا من ذوي الهمم العالية، والتطلعات الرفيعة.

يتمنى كلّ إنسان أن يكون في مقام الرفعة والتقدير. فلا يرضى أحد لنفسه أن يكون وضيعًا، ينظر إليه الناس بدونية واحتقار، ولكن ما هو الطريق الذي يوصل الإنسان إلى مقام الرفعة والعلو؟ وبخلاف ذلك، ما هي الأسباب والعوامل التي تنحدر به إلى قاع الدناءة والوضاعة؟

(١) عيون الحكم والمواعظ، ص٤٨٤.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٥٠.

آفاق الرفعة

إنّ هنالك آفاقًا ثلاثة يمكن أن يحلق فيها الإنسان ويصبح رفيعًا وذا مكانة عظيمة:

الأول: أفق العلم والمعرفة

يأخذ المرء موقعه في نفوس الناس، ويحفر اسمه في سجلات التاريخ، بمقدار ما يحقق من تقدم في مجالات العلم. فإذا كان الإنسان طموحًا، وحقق إنجازًا علميًا، سواء في مجال العلوم الطبيعية أو الدينية أو الأدب وغيرها، فإنه بذلك يأخذ موقعه في نفوس الناس وسجلات التاريخ، لذلك ما يزال الناس يتداولون أسماء المخترعين والمكتشفين والأدباء كالشيخ المفيد والطوسي والعلامة الحلي وغيرهم من عظماء الشرق والغرب. وقد احتفلت بريطانيا قبل أيام ومعها المهتمون بالأدب والمسرح في مختلف أنحاء العالم، بذكرى مرور ٤٥٠ سنة على ميلاد شكسبير الأديب والروائي الإنجليزي الشهير، وتحدثوا عن ترجمة أعماله إلى ٣٧ لغة، وأشاروا إلى وجود مئات الملايين من المتابعين لتراثه وأدبه ومسرحياته، فما الذي خلّد اسم هذا الرجل طوال هذه القرون وجعله محلّ احتفاء الملايين في العالم؟ الجواب؛ لأنه اختار التحليق في فضاء المعرفة والأدب فتربع على عرش قلوب وعقول الملايين من محبّي الأدب والفن.

الثاني: أفق القيم والمبادئ

إنّ الأشخاص الذين ينذرون أنفسهم للقيم السامية، والمبادئ

الإنسانية الرفيعة، تتألق أسماؤهم، وتلمع شخصياتهم، ويصبح لهم ذكر خالد في التاريخ. فالذين ضحوا وناضلوا من أجل الحرية والسلم والحقوق العادلة لشعوبهم وعموم البشرية، جعلوا من أنفسهم مضرب مثل للملايين، فحجزوا مكانتهم المرموقة في طليعة العظماء والخالدين. إنّ عظمة وموقعية سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليه السلام إنما تحققت لارتباط اسمه بموقف التضحية والفداء، وقد ورد في الأثر عن رؤيا الإمام الحسين عليه السلام حينما خاطبه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بقوله: «إنَّ لَكَ فِي الجَنَّةِ دَرَجاتٍ لَن تَنالَها إلّا بِالشَّهادَةِ»[1].

والأمر ذاته ينسحب على كثير من الشخصيات العالمية المرموقة، فما الذي صنع من الزعيم الهندي المهاتما غاندي هذا الاسم الخالد؟ إنه ارتباط اسمه بإنجاز عظيم تمثل في تحرير شعبه من الاستعمار البريطاني بالنضال السلمي.

وما الذي جعل للزعيم الجنوب أفريقي نيلسون مانديلا هذا الاسم الخالد، والمكانة الفذة والمحترمة في العالم؟ لقد سلخ هذا الرجل ٢٧ سنة من عمره خلف القضبان، وحينما خرج من السجن بنهاية نظام الفصل العنصري في بلاده، لم يسلك سبيل الانتقام من جلاديه البيض، بل جعل من نفسه عنوانًا للتسامح والعيش المشترك بين مختلف فئات شعب جنوب أفريقيا، رغم ما أصابه من آلام، وما تحمله السود من عذابات، فخلّد مانديلا بذلك اسمه بين العظماء؛ لأنه

(١) أبي المؤيد الموفق بن أحمد المكي الخوارزمي. مقتل الحسين، ج١، ص١٨٦.

ارتبط بقيم إنسانية عظيمة.

إنّ من يحلق في سماء القيم، كقيمة الحرية والعدالة والمساواة والدفاع عن الحقوق والشعوب والمجتمعات، سيرتقي حتمًا في درجات العلى، وسيستحق أن تعظمه الأمم جيلًا بعد جيل.

الثالث: أفق الخدمة والعمل الاجتماعي

إنّ من يخدم الناس، ويضحي من أجلهم، ويبذل طاقته في سبيلهم، فسينظر إليه الناس بتقدير واحترام. كما سيكون مقامه عند الله عظيمًا بمقدار إخلاصه وصدق نياته. ونحن نجد في مجتمعاتنا شخصيات بلغوا هذا المستوى. فإذا ما أراد المرء الرفعة وعلو المقام، فإنّ الطريق إلى ذلك هو علوّ الهمة، حيث يجعل المرء يتحمل المشاق والمتاعب التي لا تنتهي، لذلك قال الشاعر:

بقـدرِ الكـدِّ تكتسـبُ المعالـي ومن طلب العلا سهر الليالي

وكذلك وردت العديد من النصوص التي تحضّ الإنسان على أن يبذل من طاقته وقدرته، في سبيل قيم الخير والصلاح، ويتحمل المشاق والمشاكل مهما بلغت مرارتها.

عوامل السقوط

ثمة العديد من العوامل التي تساهم في الحطّ من مقام الأشخاص وتجرهم نحو مستوى الدناءة والانحطاط والوضاعة، لعلّ أبرزها استسلام المرء لشهواته. ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «وما وضعه كشهوته». إذا استسلم المرء لشهواته طمعًا في إشباعها بأيّ ثمن، فإنها

تنحدر وتهوي به حتمًا إلى قاع الوضاعة والمذلة.

إنّ لدى الإنسان سلسلة من الغرائز والشهوات والرغبات، إذا استسلم لها فقد تدفع به نحو سلوك الطرق الملتوية المتعرجة. وهذه هي المشكلة التي يقع فيها كثير من الناس، الذين يلهثون خلف أهوائهم وشهواتهم، التي تتمثل في طمع مالي، أو رغبة جنسية محرمة، أو حبّ مرضي في الشهرة وتقلد المناصب، هذه الرغبات على اختلافها قد تدفع الإنسان إلى سلوك الطرق الملتوية والمتعرجة، التي تجعل منه إنسانًا وضيعًا، ينظر الناس إليه باحتقار. وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا سُمِّيَ الْهَوَى؛ لِأَنَّهُ يَهْوِي بِصَاحِبِهِ»[1]، وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام «أَمْقَتُ العِبادِ إِلَى اللّـهِ سُبْحانَهُ مَنْ كانَ هِمَّتُهُ بَطْنُهُ وَفَرْجُهُ»[2]. ومقتضى ذلك أنّ أشدّ العباد مقتًا عند الله هم أولئك المنغمسون حتى آذانهم في شهوتي البطن والفرج. وعنه عليه السلام: «مَا أَبْعَدَ الخَيرَ مِمَّنْ هِمَّتُهُ بَطْنُهُ وَفَرْجُهُ»[3].

الحذر من الانزلاق

إنّ كثيرًا من الناس إنما انزلقوا في عالم الشهوات والدناءة نتيجة أسباب تبدو في أولها تافهة. فهناك من انزلق في هذا الطريق بسبب رغبة دفعته لسماع صوت أنثوي ناعم، أو صوت ذكوري مخادع، لكنّ

(١) عبد الله بن عبد الرحمن التميمي الدارمي. سنن الدارمي، ج١، ص١٠٩.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم. ص١١٨، حكمة ٥٠٤.
(٣) المصدر نفسه. ص٣٧٦، حكمة ٢.

هذا الطريق الذي كانت بدايته الإصغاء إلى صوت عاطفي، خاصة عبر وسائل الاتصال الحديثة، انتهى بكثيرين للوقوع في مشاكل وفضائح اجتماعية.

وبالعودة للشرارات الأولى للعديد من القضايا الأخلاقية المؤلمة التي راح ضحيتها هذا الرجل أو تلك المرأة، فسنجد أنّ البداية إنما كانت بمحادثة عابرة في إحدى وسائل التواصل الاجتماعي كالماسنجر أو الفيسبوك وما أشبه، فهناك امرأة استهواها الاستماع إلى صوت شاب، أو العكس، وسرعان ما يندفع الواحد منهم لسماع المزيد من الكلمات العاطفية، وإذا بهما وقد وجدا نفسيهما ينغمسان في عالم الانحراف والانحطاط. من هنا على المرء أن يكون حذرًا، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «اَلشَّهَوَاتُ مَصَائِدُ اَلشَّيْطَانِ»[1].

قد تكون بداية الانحراف خطوة صغيرة، أو خطأ يبدو للوهلة الأولى تافهًا. فقد يرتاح أحدهم لمجرد سماع صوت ناعم، أو رؤية صورة جميلة، فيتواصل مع الجنس الآخر برسائل عاطفية، لكن هذا بالتحديد هو ما قد يكون طريق الانحدار، فإنما هي رغبة بسيطة فيما تبدو، لكنها قد تقود الإنسان إلى منزلق عميق وهاوية سحيقة. وقد ورد في هذا السياق عن أمير المؤمنين قوله عليه السلام: «حَلاوَةُ الشَّهْوَةِ يُنَغِّصُها عارُ الفَضيحَةِ»[2]. وإلاّ فما الذي يدفع رجلاً محصنًا متزوجًا ولديه

(١) اقا حسين البروجردي. جامع أحاديث الشيعة. ج١٣، ص٣١١.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم. ص١٩٤، حكمة ٧١.

أبناء، نحو الوقوع في مثل هذا الفخ، وإذا به ينتهي سجينًا، أو مبتلى بفضيحة اجتماعية وأخلاقية كبيرة.

وقد قرأت لأحدهم أنه حينما وقع في فضيحة أخلاقية فإنّ أهون ما كان يعانيه هو ألم السجن والعقوبة، في مقابل ما كان يقاسيه من الخجل الكبير من أبنائه وبناته الذين كانوا ينظرون إليه باعتباره مثلهم الأعلى، وإذا به يقع في وحلّ الانحطاط الأخلاقي. والسؤال المهم هنا؛ ما الذي أوقع أمثال هذا في مثل هذا الفخ؟ وما الذي يدفع بامرأة متزوجة للوقوع في فضيحة والعيش مدى عمرها في عذاب الضمير لإقامتها علاقة محرمة عبر الماسنجر أو رسائل الجوال مع أحد الغرباء؟ إنما هي الرغبات والشهوات.

إنّ اتّباع الشهوات يقود الإنسان إلى المشاكل والفضائح. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «أَوَّلُ الشَّهْوَةِ طَرَبٌ، وآخِرُها عَطَبٌ»[1]، عادة ما تكون الشهوة كالطرب الذي يرتاح إليه الشخص، ولكن في نهاية المطاف تكون الكارثة والفضيحة. وفي كلمة أخرى له عليه السلام: «وَكَمْ مِنْ شَهْوَةِ سَاعَةٍ أَوْرَثَتْ حُزْناً طَوِيلاً»[2]، فهؤلاء الذين يقيمون في السجون بسبب جرائم أخلاقية وسرقات وما أشبه، إنما كانت بسبب شهوات معينة قادتهم أخيرًا إلى هذه المآزق والمشاكل والأزمات.

لذلك على الإنسان أن يكون حذرًا، وأن يتجنب الوقوع في هذا

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. ص١١٩، حكمة ٥٤٧.
(٢) الكافي، ج٤، ص٢٦٤، حديث١.

الفخ، حتى يحتفظ بعزّته وكرامته، فلا يكون وضيعًا بين عائلته وفي أعين الآخرين، والأسوأ من ذلك كله أن يكون منبوذًا عند الله تعالى. علينا أن نضع نصب أعيننا دائمًا كلمة أمير المؤمنين عليه السلام: «مَا رَفَعَ امْرَأً كَهِمَّتِه، وَلا وَضَعَهُ كَشَهْوَتِه».

التطلعات المعنوية وتسلل الشيطان

للإنسان نوعان من الرغبات والتطلعات:

الأول: الرغبات المادية، من الملذات والشهوات والأموال والمناصب.

الثاني: التطلعات المعنوية، من العبادة والتقرب إلى الله وعمل الخير وكسب المعرفة.

يشكل النوع الأول من الرغبات ساحة لإغراءات الشيطان، فاندفاع الإنسان نحو الملذات والثروات والمناصب، غالبًا ما يكون سببًا لوقوعه في الخطأ أو معصية الله والنزاع مع الآخرين والتعدي على حقوقهم.

كما أنّ أجواء الملذات والمصالح المادية أرضية مهيأة لوساوس الشيطان والنزاعات بين الناس، وهو أمر واضح.

لكن ما قد يغفل عنه الإنسان هو أنّ التطلعات المعنوية هي أيضًا ساحة مهددة بتسلل الشيطان، فكون الإنسان متوجهاً إلى الله ومبتغيًا التقرب إليه ساعيًا في عمل الخير، لا يعني أنه في حصانة من تسلل

الجراثيم والميكروبات الشيطانية إلى نفسه وتصرفه وسلوكه!

فالإنسان المؤمن العامل يحتاج إلى انتباه ويقظة، كما يحتاج إلى مناعة من هذه الجراثيم حتى وهو في هذه الساحة الروحية المعنوية العبادية.

الشيطان لا ييأس من الإنسان المؤمن؛ بل يبقى يحاول في إغرائه وإضلاله حتى آخر لحظة من لحظات الحياة، عبر إثارة النوازع الشهوانية والشريرة داخل نفسه، ولهذا تحذّرنا النصوص الدينية من وساوس الشيطان.

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إنَّ الشَّياطينَ أكثَرُ على المؤمنينَ مِنَ الزَّنابيرِ على اللَّحمِ»[1].

وعنه عليه السلام: «لقد نَصَبَ إبليسُ حَبائلَهُ في دارِ الغُرورِ، فما يَقصِدُ فيها إلّا أولِياءَنا»[2] أي بالدرجة الأولى أتباع أهل البيت المؤمنين الصالحين، فهم مقصد لنشاط الشيطان وسعيه للإغواء والإغراء؛ لأنّ صيده للمؤمن مكسب كبير، ولذلك يجب أن يكون المؤمن حذراً متيقظاً.

نقرأ في مناجاة الإمام زين العابدين عليه السلام: «إلهِي أَشْكُو إلَيْكَ عَدُوًّا يُضِلُّنِي، وَشَيْطانًا يَغْوِينِي، قَدْ مَلاَ بِالْوَسْواسِ صَدْرِي، وَأَحاطَتْ هَواجِسُهُ بِقَلْبِي يُعاضِدُ لِيَ الْهَوى، وَيُزَيِّنُ لِي حُبَّ الدُّنْيَا، وَيَحُولُ بَيْنِي

(١) بحار الأنوار. ج٨١، ص٢١١، حديث٢٧.
(٢) تحف العقول. ٣٠١.

وَبَيْنَ الطَّاعَةِ وَالزُّلْفى»[١].

اتجاهات عمل الشيطان

حينما يسعى الإنسان أو يفكر في عمل الخير، فإنّ وساوس الشيطان تتجه له من ثلاث زوايا:

الأولى: محاولة ثني الإنسان عن عمل الخير

إمّا بالتشكيك في جدوى العمل، أو بالكسل والتواني، أو بتأجيل العمل، ومن أمثلة ذلك:

يجلس الإنسان صباح يوم الجمعة فيفكر في الذهاب إلى الصلاة، وهنا تأتي الوساوس: الجوّ غير مناسب، اليوم جمعة ويمكنك أن تعتبره يوم راحة.

يعرض على الإنسان مشروع خيري، فتأتيه الوساوس:

- كيف أتأكد من سلامة هذا المشروع؟!
- وهل هو مشروع مجدٍ؟!
- لماذا أنا أسهم فيه دون غيري؟!

ولهذا تأتي الروايات تقرّر أنّ العجلة مذمومة إلّا في عمل الخير، فإنها ممدوحة.

ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «مَن هَمَّ بشَيءٍ مِن الخَيرِ فلْيُعَجِّلْهُ، فإنَّ

(١) الصحيفة السجادية، مناجاة الشاكين.

كُلَّ شَيءٍ فيهِ تَأخيرٌ فإنَّ للشَّيطانِ فيهِ نَظْرَةً»[١].

يُعرض على الإنسان مشروع خيري فيقرر أن يساهم، فإن بادر وساهم فقد أحرز التوفيق، أما إذا سوَّف إلى الغد وما بعد الغد، فقد تتغيّر نيّته وتضعف عزيمته، بدل أن يساهم بألف ينقصها إلى خمس مئة، فالشيطان يسعى كي يثني الإنسان عن عمل الخير.

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا هَمّ أحدكم بخير أو صلة فإنّ عن يمينه وشماله شيطانين، فليبادر، لا يكفَّاه عن ذلك»[٢].

الثانية: تحريف النية والمقصد.

إذا اجتاز الإنسان المؤمن العقبة الأولى، وصمم على عمل الخير، يتحول الشيطان إلى تغيير نواياه ومقاصده، من القربة إلى الله إلى حالة من الرياء والسمعة وطلب الجاه.

الثالثة: منازعة الآخرين في التطلعات المعنوية.

يسعى الشيطان إلى خلق حالة نزاع بين الإنسان المؤمن وغيره من العاملين في مجال الخير!

ونحن نلحظ في بعض الأحيان حدوث خلافات ونزاعات في أعمال دينية ضمن مسجد أو حسينية أو جمعية خيرية!

ربما يتوقع الإنسان حدوث نزاعات في مجالات الانحراف وأعمال الشر، أما في عمل خير فهو أمر مستغرب، لكنها وساوس

(١) بحار الأنوار. ج ٧١، ص٢٢٥، حديث٣٨.
(٢) الكافي. ج ٢، ص ١٤٣، حديث ٨.

الشيطان حاضرة حتى في ساحة العمل الخيري.

وهنا لا بُدّ من التفريق بين التنافس والنزاع، القرآن الكريم يدعو للتنافس والتسابق ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾، ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

التنافس الشريف مطلوب في أعمال الخير، لكن لا يصح أن يتحول إلى تنازع، فما دام القصد هو التقرب إلى الله، ينبغي أن تبقى النية صافية خالصة إلى نهاية المطاف.

للأسف الشديد.. كثيراً ما يقع المتديّنون في هذا الشرك الشيطاني، أحدهم لديه مشروع خيري، ويسعى لتقدم وتطور مشروعه، وهذا هدف نبيل، لكن هل تقدم مشروعك يستلزم أن تشوه مشروع الآخرين أو تسيء لهم؟!

هذه مداخل الشيطان لإفساد العمل الخيري.

القرآن الكريم يحدّثنا عن أول نزاع حصل في المجتمع البشري (قصة ابني آدم)، لم يتنازعا على قطعة أرض أو على مبلغ من المال، لم يتنازعا على شهوة وملذة، بل كان تنافساً في التقرب إلى الله ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّـهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّـهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ

الْخَاسِرِينَ ﴾[سورة المائدة، الآيات: ٢٧ ـ ٣٠].

أخوان يقدم كل منهما قربانا إلى الله، فيؤدي بأحدهما وهو قابيل إلى قتل أخيه هابيل!

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾

(طَوَّعَتْ) تعبير يدلّ على أنها عملية تدريجية، الشيطان يعمل على إغواء الإنسان بصورة تدريجية حتى يوصله إلى ارتكاب الخطأ، وخاصَّة في الإساءة إلى إخوانه المؤمنين، الذين يعملون معه في المجال الخيري، ويتخذ أسلوب (الخطوات)؛ ولهذا يحذّرنا القرآن الكريم من الانخداع بأساليب الشيطان (لا تتَبعوا خطوات الشيطان)، فهو يتحرك خطوة خطوة.

في البداية يصور للإنسان أنّ عمل زميله المشارك معه في المشروع الخيري يضرّ بالعمل، ثم يزيّن له معارضته، وهكذا ينتهي به إلى المواجهة والإساءة!!

ساحات العمل الخيري يفترض أن تكون أنقى وأصفى من أجواء الشهوات والرغبات المادية، لكنها ـ في بعض الأحيان ـ قد تكون أسوأ وأشدّ ظلمة!

ذلك أنّ النزاع في المجال المادي واضح صريح، أما في القضايا الدينية والخيرية فيتلبّس بلباس الدين، وتختلق له التبريرات والأعذار، فيبرر أحدهم حديثه ضدّ منافسيه أنه من أجل مصلحة العمل، وليس

لأغراض ومنافع شخصية!

يأمر الله تعالى نبيّه ﷺ أن يستعيذ به من ضغوط الشياطين ومن حضورهم في ساحة أدائه لمهامه الرسالية، ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾[سورة المؤمنون، الآيات: ٩٦-٩٨].

الاستعاذة من محاولات شياطين الجنّ والإنس ومن حضورهم ساحة العمل، وخاصّة لجهة التنازع مع الآخرين.

سياق الآية الكريمة جاء في مواجهة المخالفين والمناوئين، أن يدفع بالتي هي أحسن لكن شياطين الجنّ والإنس يدفعون إلى المواجهة.

﴿هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ الهمزات: جمع همزة، وهي التحرك بقوة أو الضغط من أجل التحرك. لذلك على الإنسان أن يكون يقظًا واعيًا، فألّا تقوم بعمل عبادي أو خيري أفضل من أن تقوم به على أرضية النزاع والخلاف مع الآخرين.

اليقظة في عمل الخير

القرآن كتاب الله المجيد، وقراءته عبادة عظيمة، حيث يُندب للمسلم التلاوة منه كلّ يوم، وكما في بعض الروايات خمسين آية كلّ يوم على الأقلّ.

عن أبي عبد الله الصادق ﷺ قال: «القرآن عهد الله إلى خلقه فقد

ينبغي للمرء المسلم أن ينظر في عهده وأن يقرأ منه في كلّ يوم خمسين آية»[١].

ولأنّ قراءته عمل عبادي فعلى الإنسان أن يتحصّن أثناء قراءته بالله عزّ وجلّ، وأن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، كما ورد عن أبي سعيد الخدري: «كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ أعوذُ باللهِ السميعِ العليمِ من الشيطانِ الرجيم»[٢]. والآية الكريمة ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّـهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [سورة النحل، الآية: ٩٨] أمر بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم عند قراءة القرآن.

من هذه المقدمة نمضي إلى فكرة أوسع، وهي أن يأخذ الإنسان حذره حينما يقدم على فعل الخير؛ لأنّ هناك أخطارًا تحيط به بمجرد أن ينوي فعل الخير، لصرفه عنه، أو لإفساد عمل الخير الذي يقوم به، وإخراجه عن مساره الصحيح؛ ولهذا تقول الآية الشريفة ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّـهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

حينما يريد الإنسان أن يقرأ القرآن الكريم عليه أن يستعيذ بالله من الشيطان،

إنّ المؤمن هنا يقرأ كتاب الله وهو كتاب هداية ومعرفة، وليس قصة مسلية أو رواية غرامية، ومع ذلك على الإنسان أن يحذر من تسلل الشيطان إليه وهو يقرأ القرآن الكريم.

---

(١) الكافي. ج٢، ص٦٠٩.

(٢) محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، ج١، ص ١٨٥، حديث٢٤٢.

لذا على الإنسان أن يستحضر ما يوجب الخلل في أيّ عمل يقوم به، وأن يتنبه إلى تربّص الشيطان به، فهو لا يريد له الخير أبدًا. قد يتصور البعض أنه طالما كان يعمل الخير فهو في مأمن من الخطر، بينما الواقع على العكس من ذلك، وكثير من النصوص القرآنية وأحاديث النبي وأهل بيته عليهم السلام تدلّ على أنّ الإنسان يحتاج إلى حصانة أكبر حينما ينخرط في عمل الخير؛ لأنه مستهدف من قبل الشيطان الرجيم، وما دام في أجواء الخير والتقرب إلى الله تعالى فالشيطان عدوه اللدود ولن يتركه وشأنه.

نقرأ في مناجاة الإمام زين العابدين عليه السلام: «إلهِي أَشْكُو إلَيْكَ عَدُوّاً يُضِلُّنِي، وَشَيْطانَاً يَغْوِينِي، قَدْ مَلاَ بِالْوَسْواسِ صَدْرِي، وَأَحاطَتْ هَواجِسُهُ بِقَلْبِي يُعاضِدُ لِيَ الْهَوى، وَيُزَيِّنُ لِي حُبَّ الدُّنْيَا، وَيَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ الطَّاعَةِ وَالزُّلْفى»[١]. وعن الإمام الباقر عليه السلام: «إذا مات المؤمن خلّى على جيرانه من الشياطين عدد ربيعة ومضر كانوا مشتغلين به»[٢]. وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن الشياطين أكثر على المؤمنين من الزنابير على اللحم»[٣]، وعنه عليه السلام: «لقد نصب إبليس حبائله في دار الغرور فما يقصد فيها إلّا أولياءنا»[٤].

(١) الصحيفة السجادية، مناجاة الشاكين.
(٢) الكافي. ج ٢، ص ٢٥١.
(٣) بحار الأنوار. ج ٧٨، ص ٢١١.
(٤) تحف العقول. ص٣٠١.

مكائد الشيطان

تتجلى مكائد الشيطان للمؤمن في عمل الخير في عدة أمور، من أهمها:

الأول: تشويه الإخلاص في العمل. حيث يتوجه الإنسان لفعل الخير قاصدًا وجه الله تعالى والتقرب إليه، لكن الشيطان لا يعجبه ذلك، فيسعى كي يوجه هذه النية الصالحة إلى أغراض أخرى، ومنها الرياء. فهو آفة كلّ عمل صالح، جاء عن رسول الله ﷺ: «إنّ الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجًا به، فإذا صعد بحسناته يقول الله عزّ وجلّ اجعلوها في سجين، إنه ليس إيّاي أراد به»[1].

يُنقل أنّ شخصًا ظريفًا مرّ على قوم يبنون مسجدًا فسألهم: ماذا تعملون؟ قالوا: نبني مسجدًا. قال: لمن؟ قالوا: لله تعالى. قال لهم: فاحرصوا أن يكون لله وحده.

ثم جاء بعد فترة ورأى البناء قد اكتمل، فكتب عليه عبارة تشير إلى أنه من بنى المسجد، وحين رأى القوم ذلك أنكروا فعله، ووبخوه: كيف تجرؤ على أن تكتب اسمك عليه ولم تعمل فيه شيئًا؟ قال: سبحان الله! إن كنتم بنيتموه خالصًا لوجه الله تعالى فما يضرّكم أن أكتب اسمكم أو اسمي؟! فالله يعلم أنكم من بنيتموه، وأجركم محرز عنده. وأما إذا كنتم قد بنيتموه للناس ليمدحوكم فذاك شأن آخر وأنا أعتذر إليكم، وهو درس أراد ذلك الشخص الظريف تقديمه لهم.

---

(١) الكافي. ج٢، ص٢٩٥.

ولا نريد من خلال هذه القصة أن نشرّع لأيّ أحدٍ أن يسرق أعمال الآخرين، لكنها مجرد ظريفة للتذكير والاعتبار.

والسؤال هنا: إذا عمل الإنسان خيرًا يقصد به وجه الله تعالى، ومدحه الناس عليه وسرّه ذلك المدح، فهل يكون قد أفسد عمله بالرياء؟

لقد وجّه زرارة مثل هذا السؤال إلى الإمام الباقر عليه السلام عن الرجل يعمل الشيء من الخير، فيراه إنسان فيسرّه ذلك. فقال الإمام عليه السلام: «لا بأس، ما من أحد إلّا ويحب أن يظهر له في الناس الخير، إذا لم يكن صنع ذلك لذلك»[١]. يجب الحذر حتى لا يكون مدح الناس هو الدافع لعمل الخير، وإنما الدافع هو ابتغاء وجه الله تعالى.

جاء عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «للمرائي أربع علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أثني عليه، وينقص منه إذا لم يثن عليه»[٢]. فالرياء مؤشر من مكائد الشيطان للإنسان، وعلى الإنسان أن يكون حذرًا منه.

الثاني: عدم استثمار العبادة وعمل الخير في تعزيز التقوى والقرب من الله تعالى، وإصلاح سلوك الإنسان العام، فتكون العبادة وعمل الخير مجرّد عمل روتيني طقوسي، دون توجه لأهداف العبادة والطاعة.

---

(١) الكافي. ج٢، ص٢٩٧.
(٢) بحار الأنوار. ج٦٩، ص٢٠٦.

الثالث: الغلو في العمل الديني. حينما شرّع الله تعالى العبادات، وضع لها ضوابط وحدودًا فلا تقبل الزيادة ولا النقص. صلاة الصبح ركعتان ومن رأى أنه في نشاط ورام أن يصليها أربعًا لم تقبل منه. وغسل الوجه واليدين في الوضوء يجب مرة واحدة، ويستحب ثانية، ويبطل إذا غسل مرة ثالثة. الطواف الواجب سبعة أشوط، ومن جعله أقلّ أو أكثر لم يقبل منه. مطلوب من الإنسان أن يتعبّد الله تعالى بما شرع، وليس كما يريد العبد، فهذا من مكائد الشيطان. إن الله تعالى ينهى عن الغلو في الدين ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾.

الرابع: الإساءة إلى الآخرين في عمل الخير والعبادات. هناك أمور واجبة وهناك مستحبات، وكلها يحب الله تعالى من عبده أن يتقرب له بها، ولكن ليس على حساب الآخرين، وليعلم من يقع في ذلك أنه قد وقع في شِراك الشيطان وحبائله.

فعلى سبيل المثال يستحب للرجل أن يجنح يديه في السجود، لكنه إذا صلى جماعة وكان في ذلك مزاحمة لمن بجانبه سقط الاستحباب.

ويستحب للصائم أن يؤخر إفطاره بعد أداء صلاة المغرب، لكن يسقط هذا الاستحباب إذا كان هناك من ينتظره للإفطار.

ومن يأتي لصلاة الجماعة أو لمجلس العزاء، ويوقف سيارته في طريق الغير، بحيث يعطّل حركتهم، فليعلم أنه وقع في فخ الشيطان.

ومن يقيم مجلسًا دينيًا فيرفع صوت المكبرات المزعجة للجيران، فهو ينحرف بعمل الخير عن مساره الصحيح، ويناله الإثم بدل

الثواب. ومن يريد أن يعمل الخير لمجتمعه، ويرى غيره أيضًا يسعى لخدمة المجتمع، فيزعجه ذلك، لأنه يريد أن يكون الأوحد والأبرز في المجتمع فيسعى لإفساد أعمالهم، فهو أيضًا قد وقع في فخ الشيطان.

على الإنسان المؤمن أن يكون يقظًا؛ لأن الشيطان يريد أن يصرفه عن عمل الخير، وأن يفرغ العمل الخيري من محتواه. الآية الكريمة تتحدث عن الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم عند قراءة القرآن، وفيها توجيه للإنسان بأن يستعيذ من الشيطان الرجيم في كل عمل خير يقوم به، يقول تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّـهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ حتى لا تفسّر القرآن حسب هواك، ولا تقرأه من أجل أن يمدحك الناس، ولا تأخذك الميول والتعصب في تفسير القرآن الكريم، وهكذا في كلّ أعمال الخير ينبغي أن يكون الإنسان يقظًا حذرًا.

تضليل الذات

هناك من يعمل السوء ويرتكب الخطأ وهو لا يعلم أنّ ما فعله خطأ يجب اجتنابه، وهذا الإنسان قد تحلّ مشكلته بالمعرفة بأن يبيّن له الخطأ الذي ارتكبه.

وهناك من يعمل السوء وهو يعلم أنه سوء وخطأ، وإنما ارتكبه بسبب ضعف إرادته وغلبة شهوته، وهذا الإنسان يمكن أن يعالج بما يساعد على تقوية إرادته وتزكية نفسه.

وهناك حالة ثالثة أسوأ من الحالتين السابقتين وهي أن يعمل الإنسان سوءاً، ثم يقنع نفسه أنّ ما عمله كان خيرًا، ويبرر لنفسه أن السوء الذي ارتكبه لم يكن سوءًا وإنما هو عمل صالح، هذه الحالة من أسوأ حالات الخطأ وارتكاب المساوئ.

حينما يرتكب الإنسان الخطأ وهو لا يعلم فإنّ مشكلته واضحة، وحينما يرتكب الإنسان السوء هو يعلم، لكنه يقول سوّلت لي نفسي، يرجى له أن يصلح حاله، ولكن حينما يرتكب الإنسان عملًا سيئًا ثم يقنع نفسه أنّ هذا العمل حسن، فهو ـ في الغالب ـ يصرّ على مسلك

السوء، وعلى عمل الفساد، تحت عنوان إنه عمل صالح مقبول، وهذا ما تشير له الآية الكريمة ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ وهو نوع من تضليل الذات، وخداع النفس، وتبرير الخطأ، وهذا أسوأ شيء، لذلك يعقّب الله تعالى بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ فمثل هؤلاء الناس الذين يسيرون في طريق تبرير المعاصي يضلهم الله؛ لأنهم يسيرون في طريق ينتهي بهم إلى الضلال حتمًا، ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾؛ لأنّ الإنسان الذي يسير في طريق الصلاح، يهيئ الله له الهداية والرشاد، ثم يخاطب الله نبيه ﷺ: ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ فالذين يرتكبون السوء ويقنعون أنفسهم أنهم يعملون خيرًا، هؤلاء يكابرون ويصرون على مواقفهم.

من صور خداع الذات

هذه الحالة من أسوأ الحالات التي يمكن أن تصيب الإنسان، ولها صور ومظاهر:

- من صورها أن يرتكب بعض المساوئ بدافع شهوة ورغبة، لكن ضميره يعاتبه فيسعى إلى إسكات صوت ضميره من خلال الخداع حتى يتخلص من التوبيخ الداخلي.
- وهناك مظهر آخر وهو أنّ البعض يبرر أعماله السيئة بأنها أقلّ سوءًا من بعض الأعمال الأخرى، فيصوّر موقفه بين خيارين لا ثالث لهما، وكلاهما سيئ، فيبرر ارتكاب أحدهما بوصفه أقل سوءًا من الآخر، وهذا غير صحيح، فإنّ الأفضل ترك كلا

الخيارين، وسلوك طريق ثالث في الصواب والصلاح، بعض الشباب الذين لا تسمح لهم الظروف بالزواج، بدلًا من أن يبتعد عن الحرام، ويسلك طريق العفة، يمارس بعض الأعمال الحرام، كاستخدام العادة السرية، ويبرر لنفسه بأنّ ذلك أفضل من انتهاك أعراض الناس، وهذا منطق مغلوط؛ لأنّ الحرام حرام، وإن كان متفاوتًا في الدرجات، إلّا أنّ الإصرار على الذنب وإن كان صغيرًا يجعله كبيرًا.

- ومن مظاهر هذه الحالة أيضًا التبرير بأنّ الغاية الحسنة تبرر العمل السيئ، فبينما هو يسعى لغاية نبيلة يستعين في تحقيقها بعمل ووسيلة سيئة، في الوقت الذي يدرك فيه أنه استعان بالخطأ يسكت ضميره بالقول إن هدفه كان نبيلًا، ولكن يغفل عن أنّ الله لا يطاع من حيث يعصى، والغاية لا تبرر الوسيلة أبدًا، وفي أيّ ظرف من الظروف؛ لأنّ الوسيلة جزء من الغاية، فإن كانت الغاية حسنة فينبغي أن تكون الوسيلة أيضًا حسنة، ولا يحق لك من أجل غاية حسنة أن تسلك مسلكًا خطأً، وكثيرًا ما يواجه الإنسان مثل هذا الأمر.

فمثلًا أحدهم يريد أن يدرك صلاة الجماعة في المسجد، وهي غاية حسنة، لكن أمامه طريقين: طريقًا قريبًا إذا سلكه يدرك أول الصلاة، يمرّ على أرض مغصوبة، وطريقًا آخر بعيدًا إذا سلكه تفوته الصلاة أو جزءٌ منها، هل يصح له أن يسير في الأرض المغصوبة لإدراك صلاة

الجماعة؟ طبعًا لا يجوز؛ لأنه لا يطاع الله من حيث يعصى، وكذلك فإن الوضوء مطلوب وواجب لكنه لا يصح بالماء المغصوب، وهكذا في مختلف المجالات.

من مظاهر هذه الحالة أن الإنسان يكون له موقف ورأي، ويعتقد أنّ موقفه حقّ، ولكن يتوسّل من أجل نصرة رأيه بانتهاك شخصيات وأعراض الآخرين، فيكتب ضدّ هذا مشوّهًا سمعته، ويتّهم آخر كذبًا وزورًا معتبرًا أنّ كلّ ذلك مبرر لأنه صاحب موقف، يرى نفسه مثلًا مجاهدًا ثوريًّا فيتهجم على من يخالفه في الموقف، ولا يرى له كرامة، وهذا ينطبق عليه أيضًا أنّ الله لا يطاع من حيث يعصى، صحيح أنّ الله يريد من العبد أن يكون مجاهدًا ينصر الحقّ ويعمل من أجل نصرة الدين وحقوق الناس، لكن عبر طريق الحق، لا طريق انتهاك حرمات الآخرين، وتشويه سمعتهم، إنّ ذلك ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾.

على الإنسان ألّا يخدع نفسه ويضلل ذاته، فإنّ الله لا يطاع من حيث يعصى، والغاية لا تبرر الوسيلة، وعلى كلّ إنسان أن يكون يقظًا؛ لأنّ الشيطان يدخل من مداخل شتى ليخدع الإنسان، فعليه أن يكون فطنًا حتى لا يقع في هذه الفخاخ.

بين نقد الذات ولوم الآخر

لأنّ الإنسان سيكون وجهاً لوجه أمام آثار ونتائج قراراته وأعماله عاجلًا أم آجلًا، فإنه مدعو لأن يكون يقظًا وحذرًا إزاء أيّ قرار يتخذه،

أو ممارسة يقدم عليها. وليس هناك من أحدٍ سيواجه هذه النتائج والآثار سوى الإنسان نفسه. ربما ينساق المرء أحيانًا خلف الرغبات والشهوات، فيقع في بعض المواقف ويرتكب بعض الممارسات، غير أنه لا يلبث أن يصاب بالصدمة حين يواجه نتائج وآثار أفعاله تلك، فيتمنى أنه لو لم يقدم على ما أقدم عليه. من هنا فالأحرى به منذ البداية ألّا يندفع خلف الرغبات والشهوات التي توقعه فيما لا يحمد عقباه.

ورد عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «كم من شهوة ساعة قد أورثت حزنًا طويلًا»[١]، وفي كلمة أخرى ورد عنه عليه السلام أنه قال: «حلاوة الشهوة ينغّصها عار الفضيحة»[٢]، ذلك أنّ المرء ربما يغرق في اللذائذ لحظة ممارسة الشهوات، غير أنه سرعان ما يتنغّص عليه عيشه إلى أبعد مدى فور مواجهته نتائج وآثار تلك الشهوة العابرة.

وعنه عليه السلام أيضًا أنه قال: «اذكروا عند المعاصي ذهاب اللذات وبقاء التبعات»[٣]، وفي ذلك إشارة إلى أنّ لذة الشهوات تنقضي فور انقضاء ممارستها، بخلاف ما تترك خلفها من النتائج والتبعات.

ربما يقع الإنسان في الأهواء أحيانًا نتيجة انسياقه خلف أجواء محيطة به، غير أنّ ذلك لا يعفيه من دفع ثمن أخطائه. إنّ الأجواء المحيطة بالإنسان مهما تعاظم تأثيرها في الدفع به نحو مزالق الشهوات، فإن ذلك لن يعفيه من تحمل النتائج. قد يكون هناك من

(١) وسائل الشيعة. ج١٥، ص٢١٠، حديث٢٠٣٠٠.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم. ص١٩٤، حكمة ٧١.
(٣) المصدر نفسه. ص٨٧، حكمة ٣٤.

يغري الإنسان ويدفعه نحو الأخطاء، غير أنّ هذا لن يعفيه من مواجهة نتائج أفعاله، ذلك أنّ عليه أن يتسلّح بالإرادة وأن يعود إلى عقله، فلا يستجيب لمن يغريه ويدفع به نحو الهاوية.

قد يسلي بعض المخطئين أنفسهم بإلقاء اللوم على الآخرين، ولن يفيدهم ذلك شيئًا. فكلّ إنسان هو صاحب إرادة ولديه عقل، ولا ينبغي له أن يتنازل عن إرادته، وأن يفكر بعقل غيره.

الشيطان يتبرأ ممن أغواهم

ويسرد القرآن الكريم في هذا الصدد عددًا من مشاهد القيامة، بغرض التحذير، وإثارة اليقظة في النفوس. ومن تلك المشاهد؛ ساعة يتوجه الناس الذين أغراهم الشيطان، ووسوس لهم ارتكاب المفاسد، يتوجهون نحو الشيطان بإلقاء اللائمة عليه في إغوائهم، وتوريطهم، ساعتئذ لا يفيدهم الشيطان ولا يفعل لهم شيئًا، بل يعترف لهم بأنه الذي أغواهم وأغراهم، على اعتبار أنّ ذلك دوره الذي أخذه على عاتقه في الحياة، وطلب من الله أن يمنحه إيّاه، بإغواء بني البشر، واستجاب الله لطلبه امتحانًا لعباده. ويُلخّص تعالى هذا الموقف في الآية الكريمة: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّـهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾[سورة ابراهيم، الآية: ٢٢].

والحقيقة أنّ الشيطان ليس له أدنى سلطة فعلية على الإنسان. يقول تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، فلا مقارنة البتة بين إرادة

الإنسان وكيد الشيطان، فالكفة تميل لصالح إرادة الإنسان بمراحل، سيما وأنّ لدى الإنسان عقلًا يهديه، ويميز بواسطته بين الخير والشر. ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [سورة النحل، الآيتان: ٩٩-١٠٠]، فالمشكلة الأساس تكمن في القابلية للانسياق خلف الشيطان، والانزلاق في هوة الشهوات استجابة لإغوائه، وليست المشكلة في قدرة الشيطان على بسط الهيمنة والتسلط على الإنسان.

الأمم الواعية تحاسب نفسها

إنّ ما ينطبق على الأفراد في ضرورة محاسبة الذات، ينطبق تمامًا على وضع الشعوب والأمم. ذلك أنّ الأمم الواعية، أكثر ميلًا لمحاسبة نفسها على أوضاعها وما يجري في واقعها، فحين تتعرض أيّ أمة لنكسة ما، أو تقع في كارثة، أو تواجه قضية كبرى، فإنّ هذه الأمة الواعية تتجه فورًا إلى نفسها، فتحاسب قياداتها وأجهزتها ووسائل إعلامها، وتفحص أنظمتها وقوانينها ومناهجها التعليمية..، وبعبارة أخرى، فإنّ المتهم الأول حينها ستكون الأمة ذاتها، هذا هو نهج الأمم المتقدمة، وهو المنهج الصحيح دون ريب. بينما تتجه الأمم المتخلفة في حال النكسات للبحث عمّن تلقي عليه باللائمة، عوضًا عن البحث عن الخلل الداخلي، والأسباب الجوهرية، المتمثلة في مناهجهم التعليمية، وثقافتهم، وأنظمة الحكم المتسلطة عليهم،

والحالة العامة السائدة عندهم. وهكذا تميل الشعوب المتخلفة إلى إلقاء المسؤولية عن إخفاقاتها على عاتق الأعداء أو الاستعمار، وما إلى ذلك من أعذار لا تنتهي.

إنّنا لا نبّرئ الأطراف الأجنبية من التآمر والعمل العدائي ضد الأمة؛ لأنها تبحث عن مصالحها وأطماعها، إلّا أنّ المسؤولية الأولى والأخيرة تقع على الأمة التي وفّرت القابلية، وأعطت الفرصة لتآمر الأمم الأخرى عليها. فالدول الكبرى لا تفتأ تبحث عن بلدان تكون أسواقًا لمنتجاتها، وتبسط عليها هيمنتها، وتجعلها تسير في فلكها، إلّا أنّ السؤال المحوري هنا، هو عن سبب وجود القابلية عند الأمة لتنزو عليها الأمم الطامعة.

إنّ أيّ أمة درجت على تحميل الخارج المسؤولية عن نكساتها وإخفاقاتها، فإنها أمة تفتقد الإرادة الجادة لعلاج مشاكلها. إنّ من يبحث جادًّا عن معالجة مشكلاته، مدعو إلى تلمّس الثغرات في واقعه، أما من ينشغل بإلقاء اللوم على الآخرين، فهو ليس صادقًا في مواجهة المشاكل.

إنّ التعاليم الدينية تنزع إلى تربية الإنسان على الاتجاه نحو محاسبة النفس. وأن يلتزم غاية الحذر عند اتخاذ قراراته، والإقدام على أعماله.

ذكر الله ثراء روحي وانضباط سلوكي

حضور أيّ شيء في ذهن الإنسان وتذكّره إنما ينطلق من أحد أسباب ثلاثة:

وجود حبّ وانشداد نفسي لأيّ شيء يجعله دائم الحضور على البال، وكثير الذكر على اللسان، ورد عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أنه قال: «مَن أحَبَّ شَيئاً لَهِجَ بِذِكرِهِ»[1].

شعور الإنسان بالحاجة إلى شيءٍ يكون دافعاً لهيمنة ذلك الشيء على فكره، فحين الجوع والعطش، يعيش الإنسان دائماً هَمّ الحصول على الطعام والشراب.

وعند القلق والخوف من أمرٍ ما ينشغل ذهن الإنسان به، وقد يصاب بالهوس والوسوسة تجاهه.

العلاقة مع الربّ

طبيعة علاقة الإنسان بربّه عزّ وجلّ تفرض عليه أن يكون دائم الذكر لله تعالى. كلّ ما عند الإنسان من نعمة فهو من الله، وأصل

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٣٢٥، حكمة٤٧.

وجوده من فضل الله عزّ وجلّ. كما يفترض في الإنسان أن يعيش الشعور بالحاجة إلى الله تعالى. ومهما كان للإنسان من قدرة وإمكانية فهي ليست ذاتية، بدليل أنه لا يستطيع أن يحافظ عليها، وفي لحظة قد يفقد كلّ ما لديه. فهو محتاج إليه في كلّ تفاصيل حياته، وحين يعرف الإنسان قدرة الله تعالى عليه، وعلى الكون كلّه، فإنه يشعر بعظمة الله سبحانه، فيكون قد ملأ مشاعره وأحاسيسه.

وهذه مرتبة سامية في العبودية، وهي معرفة مقام الله تعالى كما يُعَبّر عنها القرآن الكريم: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾. لكن المشكلة تكمن في أنّ الإنسان يصاب بالغفلة، فينشغل بالاهتمامات الجزئية عن ذكر الله تعالى.

من هنا تأتي النصوص الدينية لإعادة توجيه الإنسان إلى توثيق العلاقة بربه، وتذكيره به. وشهر رمضان المبرك هو أفضل الأزمنة التي توجّه الإنسان إلى ذكر ربه، عبر تلاوة القرآن الكريم، والدعاء والمناجاة. ورد عن رسول الله ﷺ: «ليس عمل أحبّ إلى الله، ولا أنجى لعبدٍ من كلّ سيئة في الدنيا والآخرة من ذكر الله تعالى»[1]. وفي حديث آخر أنّ أحد الأصحاب سأل رسول الله ﷺ: أيّ المجاهدين أعظم أجرًا يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «أكثرهم لله ذكرًا» قال: فأيّ الصائمين أعظم أجرًا؟ قال ﷺ: «أكثرهم لله ذكرًا». «ثم ذكر السائل الصلاة، والزكاة، والحج، والصدقة، كلّ ذلك يقول ﷺ: «أكثرهم لله

(١) كنز العمال. ج٢، ص٢٤٦، حديث٣٩٣٧.

تعالى ذكرًا»[١].

من ثمرات ذكر الله تعالى

ذكر الله عزّ وجلّ من أسمى العبادات. وهي تعود على الإنسان بأفضل الثمرات، وأهمها:

أولًا: الثقة والثبات مقابل الاهتزازات والاضطرابات.

حيث يواجه الإنسان في هذه الحياة صعوبات ومشاكل، وذُكر الله هو ما يثبت قلبه ويطمئنه؛ لأنها القوة التي يشعر بالأمن عند الركون إليها واستمداد العون منها، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

ثانيًا: ضبط السلوك.

يتعرض الإنسان في هذه الحياة لتأثير الشهوات وإغراءات الشيطان، فكيف يضبط سلوكه وتصرّفه؟ إنما يضبط سلوكه إذا كان الله تعالى حاضرًا في قلبه ومشاعره. فكلما همّ بمعصية تذكر الله تعالى وترك المعصية.

حجّ الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام على ناقته عشرين حجة، وكان يرفق بها كثيرًا، ويقول المؤرخون: أنه ما قرعها بسوط، وقال إبراهيم بن علي: حججت مع علي بن الحسين فتلكأت ناقته

(١) تفسير ابن كثير. ج٣، ص٤٩٧.

فأشار إليها بالقضيب ثم ردّ يده وقال: «آهٍ من القصاص»[١].

ورد عن رسول الله ﷺ: «وذكر الله على كلّ حال، ليس سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر فقط، ولكن إذا ورد عليك شيءٍ أمر الله به أخذت به، وإذا ورد عليك شيءٍ نهى عنه تركته»[٢].

وورد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «وذكر الله في كلّ موطن، أما إني لا أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وإن كان هذا من ذاك، ولكن ذكر الله في كل موطن إذا هجمت على طاعة أو معصية»[٣]، يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [سورة آل عمران، الآية:١٣٥].

ثالثًا: طاعة الله.

حين يكون الإنسان دائم الذكر لله عزّ وجلّ، فإنه يمتثل أوامره، لذلك ورد عن رسول الله عليه السلام: «من أطاع الله فقد ذكر الله وإن قلّت صلاته وصيامه وتلاوته، ومن عصى الله فقد نسي الله، وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن»[٤]. وإذا أطاع الإنسان ربه فتحت له آفاق القرب منه.

---

(١) باقر شريف القرشي، حياة الإمام زين العابدين، دراسة وتحليل. ج١، ص٢٢٧.
(٢) بحار الأنوار. ج٩٠، ص١٥٥.
(٣) محمد بن الحسن الحر العاملي. وسائل الشيعة. ج ١٥، ص ٢٥٥.
(٤) المصدر نفسه. ج ١٥، ص ٢٥٧.

رابعًا: عناية الله تعالى.

من أراد أن يكون الله معه في كلّ حين، ويدفع عنه السوء والبلاء، فليذكر الله عزّ وجلّ، حتى يذكره الله ويسوق له الخير: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾. وذكر الله يكون في كلّ حين وفي كلّ آن، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً* وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ ثم يؤكّد الله تعالى بأنّ ذلك مدعاة لعنايته ونزول رحمته: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ﴾. وأولى هذه العناية الربانية هو إخراج العبد من عتمة الظلام إلى الضياء والنور: ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾.

خامسًا: المنزلة العظيمة عند الله تعالى.

من أراد أن يعرف منزلته عند الله، فلينظر منزلة الله تعالى في نفسه. فمتى كانت منزلة الله عظيمة عنده، فإنّ منزلته عند الله كذلك. ورد عن رسول الله ﷺ: «من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله، فلينظر كيف منزلة الله عنده فإنّ الله تعالى ينزل العبد حيث أنزل العبد الله من نفسه»[1].

(١) بحار الأنوار. ج٩٠، ص١٦٣.

روادع المعاصي لطف إلهي

هناك أسباب لابتعاد الإنسان عن الذنوب والمعاصي، منها:

١. **إدراك القبح والضرر**: هناك من يتجنب الذنوب والمعاصي لوعيه بقبحها وضررها، فهو لا يقترف المعصية؛ لأنه يعي أنّ ذلك شيء يضرّه ويؤذيه، تمامًا كما يتجنب الإنسان شرب الماء القذر، أو أكل الشيء الفاسد؛ لأنه يدرك ضرره وتنفر منه نفسه.

٢. **الالتزام بأمر الله تعالى**: أهل الورع والتقوى يتجنبون المعصية التزامًا بأمر الله عزّ وجلّ، حتى لو لم يعرفوا العلة من هذا المنع، وما هي الفائدة وما هو الضرر. يسلّمون بأمر الله عزّ وجلّ فينتهون لنهيه، ويلتزمون بما أمرهم به.

٣. **تعذّر القيام بالمعصية**: وفي الناس من يتجنب المعصية لتعذّرها عليه، وهذه درجة من درجات التوفيق. ورد عن الإمام علي عليه السلام: «مِنَ الْعِصْمَةِ تَعَذُّرُ الْمَعَاصِي»[1].

---

(١) نهج البلاغة. حكمة ٣٤٥.

٤. **وجود الرادع**: وفي الناس من يترك المعصية لوجود رادع فلا يمارسها، أو لا يستمر عليها، وأكثر الناس هم من هذا الصنف.

حرية العصيان لماذا؟

والسؤال هنا: لماذا لا يكون الرادع من قبل الله تعالى فوريًا؟

والجواب أنّ هذا ينافي حكمة الله تعالى في خلق الإنسان ووجوده في هذه الحياة، فقد خلق الله الإنسان ليبتليه، وليمتحنه، وإذا أتته العقوبة فورًا فلا يكون هناك فرصة كافية للامتحان.

يريد الله تعالى من عباده أن يتجنبوا معصيته باندفاع من داخل أنفسهم، كما يريد تعالى أن تستمر أمور الحياة ضمن ممارسة الإنسان لحريته واختياره.

لذا شاءت حكمة الله عزّ وجلّ ألّا تكون الروادع فورية، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾[سورة فاطر، الآية:٤٥]، إنه يمهل العاصين ليؤاخذهم في الوقت المناسب ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً﴾، وقت الردع قد يكون بعد الموت، أو أنّ معنى ﴿أَجَلٍ مُسَمّىً﴾ أي محدد بوقت يخصصه الله تعالى وليست عقوبة فورية. الله عزّ وجلّ لا يخشى أن يفوته العاصي؛ لأنّ ذلك من الضعف، تعالى الله عن ذلك، وكما ورد عن أبي جعفر عليه السلام: «إنّما يعجل من يخاف الفوت»[1]. فهناك يوم يحاسب الله فيه

(١) بحار الأنوار. ج٥٢، ص١١٠.

الناس ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾ حينما يجتمع الخلق عند الله عزّ وجلّ فإنّه يعلم ما قدّموا من خير وشرٍّ، فيحاسبهم ويكافئهم.

الحذر من الاستدراج

قسم من الناس حينما لا يجد ما يردعه، يستمر في المعصية، وهذا هو الامتحان الكبير، الذي يعبّر عنه القرآن الكريم بالاستدراج و الإملاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾[سورة الأعراف، الآية:١٨٢].

وقد تشاء حكمة الله تعالى أن يوجّه نوعًا من الردع كجرس إنذار يدقه لبعض العباد، وهذا من توفيق الله عزّ وجلّ. ومع أنّ هذا الإنذار هو لطف إلهي، لكنّ البعض ينزعج من هذا الرادع. ألا ترى كيف تزود بعض السيارات بجهاز إنذار للتنبيه عند تجاوز السرعة، لكن بعض الناس يزعجه هذا الصوت فيعمد إلى إخماده.

ومن لطف الله تعالى بعباده، أنّ طرق الإنذار متعددة، ومن تلك الطرق:

١. **الرؤيا المحذّرة**: بأن يهيئ الله تعالى رؤية مخيفة يحمل إشارات معينة للشخص العاصي أو الذي ينوي المعصية حتى يتعظ وينزجر. ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا كان العبد على معصية الله عزّ وجلّ وأراد الله به خيرًا أراه في

منامه رؤيا تروعه فينزجر بها عن تلك العصية»[١]. أخبرني أحد الأشخاص أنه كان ذات مرة في سفر مع بعض الشباب، وكانوا ينوون ارتكاب أعمال سيئة، لكنه رأى في المنام وكأنه أمام حريق رهيب، والنار تقترب منه، فاعتبر ذلك إنذاراً وقرر التراجع عما كان ينوي فعله من عمل حرام.

٢. **العقوبة النظامية**: ومن أجراس الإنذار الإلهية، مواجهة العقوبة الدنيوية جزاء المعصية. حيث إنّ من يعصي ويرى أنه ليس هناك ما يردعه، ولا يشعر بمن يراقبه فإنه يستمر في عمل المعصية، ولكن من يتعرض للعقوبة يعيد النظر في توجهاته وسلوكه. وهذه هي فلسفة الحدود والتعزيرات وأنظمة العقوبات. وحينما تنتفي العقوبات أو تخف في مجتمع فإن الأمن ينعدم، وهذا ما نلحظه فعلاً من كثرة الجرائم، بسبب ضعف الرقابة والردع، حيث تسمع عن القبض على مجموعة من المجرمين وثبوت التهمة عليهم، لكن سرعان ما تسمع أنه تم إطلاق سراحهم بالكفالة، أو بالواسطة، وهذا أمر يشجع على الإجرام، فينعدم الأمن في المجتمع.

٣. **المصائب الدنيوية**: كذلك مما ينذر الله تعالى به عباده، وقوع الإنسان في مشكلة ما، حيث يصاب بخسارة مالية، أو مرض، أو فشل، أو أيّ شيء يعكّر صفو حياته ويعترض طريقه، فإنّ

(١) بحار الأنوار. ج٥٨، ص١٦٧.

ذلك ربما يكون عقوبة لمعصية، عجّلها الله في الدنيا. وهذه من نعم الله عزّ وجلّ كما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا أراد الله بعبد خيرًا عجّل عقوبته في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد سوءًا أمسك عليه ذنوبه حتى يوافي بها يوم القيامة»[١].

كما نقرأ في دعاء كميل: «اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي تَهْتِكُ الْعِصَمَ، اَللّـهُمَّ اغْفِـرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي تُنْزِلُ النِّقَمَ، اَللّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتي تُغَيِّـرُ النِّعَمَ، اَللّـهُمَّ اغْفِرْ لي الذُّنُوبَ الَّتي تَحْبِسُ الدُّعاءَ»[٢].

وقوع الإنسان في مشكلة قد يكون جرس إنذار، وهذه نعمة من الله، وعليه أن يتنبه لها. صحيح أنّ أيّ مشكلة تسبب إزعاجاً، ولكن إذا انتبه الإنسان أنّ هذا جرس إنذار، وابتعد عن المعصية وتاب منها، فإنه سيعلم أنّ ذلك كان خيرًا له. ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا وَزَادَ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ الْآخِرَةِ وَزَادَ فِي الدُّنْيَا فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَابِحٍ وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ»[٣]. على الإنسان ألّا يغتر لعدم نزول العقوبة، فكما يقول الإمام علي عليه السلام: «كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ وَمَغْرُورٍ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ وَمَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ وَمَا ابْتَلَى اللَّـهُ أَحَداً بِمِثْلِ الْإِمْلَاءِ لَهُ»[٤].

---

(١) الشيخ الصدوق أبو جعفر محمد بن علي ابن بابويه القمي. الخصال، ص٢٠.
(٢) دعاء كميل بن زياد.
(٣) نهج البلاغة. خطبة ١١٤.
(٤) المصدر نفسه. حكمة ١١٦.

التوبة حتى لا يصبح الذنب مسلكًا

يحتاج الإنسان المؤمن للوقاية الروحية الدائمة من احتمالات الوقوع في الذنوب والآثام، تمامًا كحاجته الجسمية المستمرة لتأمين النظافة والوقاية من الأقذار والأوساخ. فعلى غرار سعي المرء للمبادرة للعلاج والوقاية الصحية من الأمراض، أو الحفاظ على نظافته من الأدران، ينبغي أن يكون هكذا تمامًا على الصعيد الروحي، فليست هناك وسيلة أخرى يعصم المرء بها نفسه من احتمالات الوقوع في الذنوب والأخطاء، فالعصمة بيد الله يؤتيها بفضله من يشاء من عباده، أما سائر البشر فهم معرّضون للجنوح نحو الأخطاء.

وتتميّز الشريعة الإسلامية بنظرة واقعية للإنسان المؤمن، فلا ترفعه لمستوى الملائكة المنزّهين عن الخطأ، وإنما تتعامل معه كسائر البشر المعرّضين لارتكاب الأخطاء، تمامًا كقابليتهم للتعرض لسائر الأمراض الجسمية. من هنا نبعت الحاجة إلى وقاية الروح وتطهير النفس، تجنبًا لمزالق الشيطان والنفس الأمارة بالسوء.

إنّ من أهم وأبرز سبل الوقاية الروحية من احتمالات الوقوع

في الأخطاء والذنوب، هو التمسك بذكر الله سبحانه وتعالى، ليس باللسان فحسب، وإنما بجعل الله سبحانه حاضرًا في قلوبنا. إنّ استحضار عظمة الخالق في قلب الإنسان، والتفكر الدائم في عاقبة الأمور في الآخرة، هو أفضل ما يقي الإنسان به نفسه من الوقوع في الخطأ. عدا ذلك يبقى المرء، حسبما تشير النصوص الدينية، معرّضًا للآثام مهما بلغت درجة تقواه وورعه، وهو لذلك محتاج باستمرار للتذكر بأنه خاضع للرقابة الإلهية، وعدم الغفلة عن أنه عرضة للعذاب والسخط الإلهي، إن أوغل في الذنوب والأخطاء.

إنّ ذكر الله يكاد يكون حجر الزاوية في النأي بالنفس عن الفواحش والظلم، فالوقوع في المعاصي أمر مقرون دائمًا بالغفلة عن ذكر الله. لذلك نجد الآيات الكريمة في تناولها للمتقين، تذكر أنّ من صفاتهم أنهم إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[سورة آل عمران، الآية:١٣٥].

ولعل الإشارة الأبرز هنا هي أنّ هؤلاء المتقين أنفسهم ليسوا في منأى عن ارتكاب الأخطاء، فقد ذكرت الآيات الكريمة من صفات المتقين أنهم ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، لكن تتحدث الآية عنهم في الوقت عينه بالقول ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾، والفاحشة

من الفحش، وهو تعدّي الحدّ، فليس المقصود بالفاحشة هنا ارتكاب الزنا فقط، وإن كان القرآن الكريم قد وصف الزنا بأنه فاحشة ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾، ذلك لأنّ الزنا من أظهر مصاديق الفاحشة، لكن حقيقة الأمر هي أنّ كل خطأ وكل ذنب هو تجاوز للحدّ، ويمكن أن يوصف حينئذٍ بالفحش والفاحشة.

إذًا، فالإنسان مهما بلغت درجة تقواه يبقى معرضًا للخطأ والوقوع في الذنب. وتتفاوت درجة الذنوب باختلاف مقامات البشر، ففي حين تبقى ذنوب الإنسان العادي ضمن مستواه، فإنّ الأمر مختلف بالنسبة للمتقين، فأقلّ خطأ لدى هؤلاء يعتبر ذنبًا كبيرًا، ولذلك ورد في الرواية: «حَسَنَاتُ اَلْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ اَلْمُقَرَّبِينَ»[1]. من هنا كانت الركيزة الأساس لدى الإنسان المؤمن هي نبذ الغفلة عن ذكر الله، والاستغفار الدائم عن ارتكاب الذنوب والفواحش، ما ظهر منها وما بطن.

الذنب طارئ أو مسلك

في هذا السياق هناك حالتان تعتري الإنسان عند ممارسة الذنوب والأخطاء، فتارة يكون ارتكاب الذنوب سلوكًا دائمًا متكررًا، فيصبح عندها كالمرض المزمن، وتارة تعترضه الأخطاء نتيجة غفلة أو جهل، وسرعان ما يتراجع عنها ويتوب منها. فالإنسان المؤمن لا يرضى لنفسه القيام بالذنوب والأخطاء كسلوك دائم، أما صدور بعض الذنوب والأخطاء، فهذا أمر وارد في حياة البشر، من هنا ورد عن النبي ﷺ:

(١) بحار الأنوار. ج٢٥، ص٢٠٥.

«كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[١].

من هذه الزاوية يمكن معرفة حديث الفقهاء عن مفهوم (العدالة)، حيث يذكرون أنّ العدالة تزول بارتكاب الذنب وتعود بالتوبة والاستغفار، فالعدالة ليست بمعنى العصمة، الإنسان العادل وفق هذا المفهوم ليس بمعنى المعصوم الذي لا يصدر منه خطأ، بل على النقيض من ذلك، قد يصدر من المؤمن العادل خطأ ما، لكن المناط هنا هو في الاستغفار والعودة عن الذنب، أو الاستمرار فيه والإصرار عليه.

من المؤسف أن يتشدد البعض على نحو مبالغ في محاسبة الآخرين على أخطاء ارتكبوها في فترة ما من حياتهم، حتى بعد أن أقلعوا عنها وتابوا منها. نحن نواجه هذه المشكلة مثلًا عند حالات الخطوبة والزواج، فترى أحدهم يتشدد في شروطه على نحو بالغ التعقيد، وقد يتشبث أحيانًا بكلمة سمعها من زمن عن هذا الشاب أو تلك الفتاة، فيكون ذلك سببًا في عدم الموافقة والقبول بها أو به زوجًا. إنّ التعاليم الدينية تشير بوضوح إلى رحمة الله الواسعة، وقبوله التوبة عن عباده، فكما يمكن أن تصدر منّا الأخطاء والذنوب فنتراجع عنها، كذلك الآخرون يمكن أن يعتريهم الأمر ذاته.

المبادرة للتوبة

ينبغي للإنسان أن يكون يقظًا تجاه أخطائه وذنوبه، وأن يبادر فورًا للتوبة النصوح والاستغفار، دون تسويف ومماطلة، وإرجاء للمستقبل

(١) محمد ناصر الدين الألباني. صحيح سنن الترمذي. حديث ٢٤٩٩.

المجهول. وليس الاستغفار هنا مجرد ألفاظ يتفوّه بها اللسان، وإنما هو عزمٌ قلبي وتصميم على عدم اقتراف الذنب مرة أخرى، فكما أنه لا يصح اليأس من رحمة الله، كذلك لا يجوز التسويف والإصرار على الذنب، ورد في الآية الكريمة ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

فعلاوة على أنّ الإنسان غير ضامن لعمره حتى يعمد لتأجيل توبته، يدلّ التسويف كذلك على اللامبالاة والاستهانة بأوامر الله، ولذلك على المرء أن يبادر للاستغفار والتوبة.

إنّ من كرم الله ولطفه بعباده أن فتح لهم أبواب التوبة على مصاريعها الواسعة، ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «الإصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله ولا يحدث نفسه بتوبة فذلك هو الإصرار»[1]، فيشير الإمام إلى أنّ المصرّ على الذنب هو ذلك الإنسان الذي يخطئ ولا يستغفر، بل لا يحدّث نفسه بالإقلاع عن ذلك الذنب والخطأ. ولذا حثت النصوص الدينية على اليقظة إزاء ارتكاب الأخطاء، والمبادرة للتوبة والاستغفار، ونبذ المماطلة والتسويف في فعلها.

روي عن أبي عبدالله جعفر الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله أربع من كنّ فيه لم يهلك على الله بعدهنّ إلّا هالك، يهم العبد بالحسنة فيعملها فإن هو لم يعملها كتب الله له حسنة، وإن هو عملها كتب الله له عشرًا، ويهم بالسيئة أن يعملها، فإن لم يعملها لم يكتب عليه شيء،

(١) الكافي. ج٢، ص٢٨٨.

وإن هو عملها أجل سبع ساعات، وقال صاحب الحسنات لصاحب السيئات: لا تعجل عسى أن يتبعها بحسنة تمحوها، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: إنّ الحسنات يذهبن السيئات، فإن قال: أستغفر الله لم يكتب عليه شيء، وإن مضت سبع ساعات ولم يتبعها بحسنة واستغفار، قال صاحب الحسنات لصاحب السيئات: اكتب على الشقي المحروم»[١]، فبحسب الرواية يعطي الله سبحانه فرصة التراجع عن المعصية على مدى ساعات من ارتكابها، والاستغفار منها ومحوها، ذلك حتى لا يبقى الإنسان منشدًّا إلى المعصية، ولا تبقى المعصية منغرسة في نفسه.

كما ورد عن زرارة قال سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول: «إنّ العبد إذا أذنب ذنبًا أجل من غدوة إلى الليل فإن استغفر الله لم تكتب عليه»[٢]، فالمذنب في النهار إذا استغفر ربه في ليلته لم تكتب عليه تلك السيئة. وروى الإمام الصادق عليه السلام عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «طوبى لمن وجد في صحيفة عمله يوم القيامة تحت كلّ ذنب أستغفر الله»[٣] ومعنى ذلك الاستغفار والإقلاع عن كلّ ذنب يذنبه العبد.

أبواب الأمل والرجاء

ولنتأمل الرواية الآتية التي تكشف إلى أيّ مدى يفتح الإسلام أبواب الأمل والرجاء أمام الإنسان، وكيف تدفع هذه النصوص والروايات

(١) الكافي. ج ٢، ص ٤٣٠.
(٢) المصدر نفسه. ج ٢، ص ٤٣٧.
(٣) وسائل الشيعة. ج ١٦، ص ٦٩.

الإنسان إلى أحضان الرحمة الإلهية، فعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «العجب ممن يقنط ومعه الممحاة، قيل: وما الممحاة؟ قال: الاستغفار»[١]، فالإمام يشبّه الاستغفار بالممحاة التي يستخدمها المعلم أثناء الكتابة على لوح التعليم في الصفوف الدراسية، فهو يكتب ويمحو ويزيل ما يشاء بتلك الممحاة، كذلك الأمر مع الاستغفار فهو ممحاة الذنوب والأخطاء أنّى عزم العبد المؤمن على ذلك.

إنّ وجود فرص الاستغفار لدى العبد المؤمن هي كدعوة مفتوحة بألّا يقنط من رحمة الله. وعن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «تَعَطَّرُوا بِالِاسْتِغْفَارِ لاَ تَفْضَحْكُمْ رَوَائِحُ اَلذُّنُوبِ»[٢]، فلننظر لهذا المعنى العظيم لهذه الرواية، فهي تشير إلى أنّ الذنب له رائحة كريهة، تنعكس على شخصية الإنسان وسلوكه، وهذه الرائحة لا تزول سوى بالاستغفار، وتلك نعمة كبيرة من الله سبحانه وتعالى على الإنسان.

وأخيرًا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ أَذْنَبَ ذَنْباً فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، وَاِسْتَغْفَرَ اَللَّـهَ إِلاَّ غُفِرَ لَهُ وَكَانَ حَقّاً عَلَى اَللَّـهِ أَنْ يَقْبَلَهُ، لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اَللّٰهَ يَجِدِ اَللّٰهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾»[٣].

(١) وسائل الشيعة. ج ١٦، ص ٦٩.
(٢) بحار الأنوار. ج ٦، ص ٢٢.
(٣) وسائل الشيعة. ج ١٦، ص ٧٩.

الفصل الثاني: **مناطق الخطر**

تنمية الحساسية تجاه الذنوب

يحتاج الإنسان باستمرار إلى امتلاك إحساس مرهف تجاه ارتكاب الأخطاء والذنوب. فقد يقع الإنسان في الذنب والخطأ نتيجة جهله والتباس الأمور عليه، وعدم معرفته بأنّ ما قام به أمر خطأ، وهنا قد يعذر، خاصة إذا كان قاصرًا في جهله؛ لأنّ الجهّال على نوعين:

جاهل قاصر وجاهل مقصّر، فالجاهل القاصر هو الذي لم تتح له ظروف المعرفة لسبب أو لآخر، أما الجاهل المقصّر فهو من يستطيع أن يتعلم لكنه لم يفعل، من هنا فالجاهل القاصر أقرب للعذر. لكن الجاهل المقصّر معرض للمحاسبة على تقصيره، وقد ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّ اَللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ: عَبْدِي أَكُنْتَ عَالِماً؟ فَإِنْ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ لَهُ: أَفَلاَ عَمِلْتَ بِمَا عَلِمْتَ، وَإِنْ قَالَ: كُنْتُ جَاهِلاً، قَالَ لَهُ: أَفَلاَ تَعَلَّمْتَ حَتَّى تَعْمَلَ؟»[1].

وغالبًا ما يقع الإنسان في المعصية والخطأ نتيجة ضعف الإرادة والاستجابة لضغط الأهواء والمصالح الآنية، فيقع في الذنب عامدًا.

---

(١) محمد بن الحسن الطوسي. الأمالي، ج١، ص٨، باب ١، حديث ١٠.

ولذلك احتاج الإنسان باستمرار إلى تنمية إحساس مرهف يقيه شر الوقوع في الأخطاء والذنوب.

إنّ من نعم الله تعالى على الإنسان أن زود جسمه بأجهزة مناعة عضوية تقيه شرّ الآفات، كما زود روحه أيضًا بجهاز مناعة يتمثل في الضمير المتحفز إزاء ارتكاب الأخطاء. فكما أنّ جسم الإنسان يتمتع بجهاز مناعة يتشكل في الخلايا الليمفاوية، منوط به مكافحة الميكروبات والأجسام الغريبة الضارة بالجسم، كذلك تتمتع الروح بجهاز مناعة يتمثل في الضمير، ويستيقظ هذا الضمير عندما يقوم الإنسان بخطأ، فيشعره بالذنب، وتبدأ نفسه بلومه ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾. إذا وقع الإنسان السوي في خطأ لضعف إرادة أو لسيطرة شهوة عليه، فإنه سرعان ما يشعر بوخز الضمير، فيلوم نفسه ويندم.

تقوية المناعة النفسية ضدّ المعاصي

هناك الكثير من النصوص الدينية التي تحضّ الإنسان المؤمن على تنمية الحساسية داخل نفسه، تجاه ارتكاب الذنب والخطأ. فكما تكون لدى جسم الإنسان حساسية مفرطة أحيانًا تجاه بعض الأطعمة فيظهر أثر ذلك على جلده مثلًا، عليه كذلك أن يتحسس من الذنوب، وذلك ما يعبر عنه في الأدعية المأثورة والنصوص الدينية بحالة الندم على الذنب.

إنّ أسوأ ما يمكن أن يمر به الإنسان هو أن يميت في نفسه الحساسية التي يتمتع بها ضميره بشكل طبيعي، فيرتكب الذنب دون

أدنى اكتراث، وهذا ما يعني الاستهانة بالذنب.

إنّ على الإنسان المؤمن ألّا يستهين بأي ذنب مهما صغر في نظره، فكما ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «أَشَدُّ الذُّنُوبِ مَا اسْتَهَانَ بِهِ صَاحِبُهُ»[١]، وفي رواية أخرى: «أَعْظَمُ اَلذُّنُوبِ عِنْدَ اَللَّـهِ سُبْحَانَهُ ذَنْبٌ صَغُرَ عِنْدَ صَاحِبِهِ»[٢]، فلا ينبغي أن يعوّد الواحد منّا نفسه الاستهانة بالذنوب، فمهما صغرت المعاصي، عليك أن تعظمها في نفسك؛ لأنها مخالفة للعظيم والكبير المتعال سبحانه وتعالى، ولعلنا نلحظ ذلك في حياتنا العادية، فقد يمازح أحدهم شخصًا ما قريبًا فيتقبل منه ذلك، لكن التصرف نفسه يعدّ غير لائق عندما يجري أمام شخص عظيم القدر والمنزلة. علينا الاحتفاظ بيقظة ضمير دائمة حتى لا ننجرف خلف حالة الاستهانة بالذنوب.

إنّ من علامات الإيمان عند الإنسان مستوى حساسيته تجاه الذنوب، فإذا رأيت نفسك غير مرتاحة عند ارتكاب أيّ خطأ، مهما كان صغيرًا، فهذا دليل إيمانك وصفاء نفسك. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ»[٣]، وروى أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام عنه قوله: «إِنَّ اَلرَّجُلَ لَيُذْنِبُ اَلذَّنْبَ فَيُدْخِلُهُ اَللَّهُ بِهِ اَلْجَنَّةَ. قُلْتُ: يُدْخِلُهُ اَللَّـهُ بِالذَّنْبِ اَلْجَنَّةَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنَّهُ لَيُذْنِبُ فَلاَ يَزَالُ

(١) نهج البلاغة. حكمة ٣٤٨.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٣) الشيخ الصدوق. عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ١٢٥.

مِنْهُ خَائِفاً مَاقِتاً لِنَفْسِهِ فَيَرْحَمُهُ اَللَّـهُ فَيُدْخِلُهُ اَلْجَنَّةَ»[١].

بين الندم والابتهاج بالذنب

قد يكون الذنب في الحالة السوية سببًا للاقتراب من الله، وطلب العفو منه، والخوف من العاقبة السيئة. ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ما من عبد أذنب ذنبًا فندم عليه إلّا غفر الله له قبل أن يستغفر»[٢]، ذلك لأنه شعر بالندم فيغفر الله له.

وعلى النقيض من ذلك، فإنّ المصير السيئ ينتظر المذنب الذي لا يكترث بذنبه، وأسوأ منه المذنب الذي يفرح بذنبه، فقد ورد عن الصادق عليه السلام: «من أذنب ذنبًا وهو ضاحك دخل النار وهو باك»[٣]، وروي عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال: «إيّاك والابتهاج بالذنب فإنّ الابتهاج به أعظم من ركوبه»[٤]، وتحدث حالة الابتهاج بالخطأ مثلًا عندما يتنازع الإنسان مع الآخرين، فيتمكن من ظلم خصمه فيفرح بذلك، وكأنه حقق نصرًا عظيمًا. إنّ ظلمك لغيرك ذنب، أما فرحك بهذا الذنب فهو ذنب أكبر.

نحو مدعوون لجعل ضمائرنا حية يقظة على نحو دائم، سيما إذا أخطأنا بحقّ الآخرين. ينقل في هذا السياق بأنّ المرجع الديني السيد البروجردي غضب من أحد تلامذته وعنفه أثناء نقاش دار بينهما خلال

(١) الكافي. ج ٢، ص ٤٢٦.
(٢) المصدر نفسه. ج ٢، ص ٤٢٧.
(٣) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٣٠٥.
(٤) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٥٩.

الدرس، لكن السيد البروجردي لم يستطع النوم في تلك الليلة، حتى ذهب بنفسه إلى منزل تلميذه ليقدم له الاعتذار، ويطلب منه العفو، فتعجب التلميذ، وقال أنت معلمنا ووالدنا فلا داعي للاعتذار، وإن كان ولا بُدّ فدع ذلك حتى الغد، فقال السيد البروجردي إنه لم يغمض له جفن ولم يستطع النوم، متسائلًا من يضمن لي أن أعيش إلى يوم غد؟!

إنّ يقظة الضمير حالة إيمانية سامية، ينبغي أن نربي أنفسنا عليها، فلا نتهاون بذنوبنا، ولا نستحقر غيرنا، وأيًّا كان خصمنا حتى لو كان خادمًا عندنا، فغدًا سيطالبنا بحقّه أمام رب العالمين، ويا له من موقف صعب هناك، وما أهون تقديم الاعتذار عنه في هذه الدنيا لو تأمل الإنسان وفكر.

كيف نعصي الله بنعمه؟

يتقلب الإنسان في نعم الله منذ أن يفتح عينه على الحياة وحتى آخر رمق يعيشه. فكل ما بين يدي البشر هو نعمة من الله، ولذلك حقّ على الإنسان أن يشكر الله تعالى على نعمه، وفي الحدّ الأدنى ألّا يستخدم هذه النعم التي أنعم الله بها عليه في معصيته سبحانه وتعالى. إنّ فطرة الإنسان تدفعه للإحسان لمن أحسن إليه، وعقله يوجب شكر المنعم، فإذا أنعم أحد على آخر بشيء فإنّ العقل يوجب شكره، وقبيح عقلًا ومستنكر وجدانًا أن يقابل المحسن بالإساءة، والمنعم بالجحود، والأشدّ قبحًا أن يستخدم الإنسان الإمكانات والنعم في الإساءة للمنعم. هذا المبدأ يجب أن يكون حاضرًا في نفس الإنسان ضمن علاقته بالخالق المنعم جلّ وعلا.

ينبغي للمرء ألّا يعصي ربه عزّ وجلّ. فإذا همَّ بمعصية فلا يليق أن يعصى ربه بالنعم التي أنعم بها عليه، من هنا يأتي السؤال؛ وهل عند الإنسان شيء من خارج نعم الله؟ فكلّ جوارحك أيها الإنسان نعم من الله، فالعين التي تعصي بها ربك من خلال نظرة الحرام، من أعطاها

قدرة البصر؟ وكذلك سمعك ويدك، وقدمك، وجميع جوارحك وغرائزك، فكلّ ذلك من عند الله، فكيف يسمح لك وجدانك وعقلك أن تقابل الله تعالى بالمعصية من خلال النعم التي أنعم بها عليك؟

تلفت الروايات الشريفة نظر الإنسان إلى عجزه عن الخروج عن سلطان الله ونعمه التي لا تحصى. ويروى في هذا الشأن عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أَقَلُّ مَا يَلْزَمُكُمْ لِلَّـهِ سُبْحَانَهُ، أَلاَّ تَسْتَعِينُوا بِنِعَمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ»[١].

روي أنّ الحسين بن علي عليه السلام جاءه رجل وقال: أنا رجلٌ عاصٍ ولا أصبر عن المعصية، فعظني بموعظة، فقال عليه السلام: «افعل خمسة أشياء وأذنب ما شئت، فأول ذلك: لا تأكل رزق الله وأذنب ما شئت، والثاني: اخرج من ولاية الله وأذنب ما شئت، والثالث: اطلب موضعًا لا يراك الله وأذنب ما شئت، والرابع: إذا جاء ملك الموت ليقبض روحك فادفعه عن نفسك وأذنب ما شئت، والخامس: إذا أدخلك مالك في النار فلا تدخل في النار وأذنب ما شئت»[٢] فاتعظ الرجل وأناب. لذلك على الإنسان أن يتوقف وأن يتأمل تجاه أيّ داعٍ من دواع المعصية.

التأهيل لنعم الآخرة

إنّ هذه النعم التي أعطاها الله البشر في هذه الدنيا، إنما هي جزء

(١) نهج البلاغة. حكمة ٣٣٠.
(٢) بحار الأنوار. ج ٧٥، ص ١٢٦، حديث ٧٠.

ضئيل جدًّا من النعم الكبيرة التي ادّخرها لهم في الآخرة. لقد خلق الله تعالى الناس في هذه الدنيا حتى يمتحن مدى جدارتهم واستحقاقهم لتلك النعم المدخرة لهم في الآخرة. فإذا تصرفوا في هذه الدنيا على نحو جيّد، ولم يستخدموا هذه النعم -على أقلّ تقدير- في معصية الله، فإنهم يثبتون استحقاقهم وأهليتهم لتلك النعم الكبيرة العظيمة في الآخرة. وذلك يشبه تمامًا كما لو أنّ جهة ما استضافتك لمدة أسبوع في قصر منيف، وجُعل كلّ شيء فيه طوع يديك، ثم قالوا لك: سنرى بعد أسبوع واحد كيف تعاملت مع هذه النعم التي وضعناها بين يديك، فإذا تصرفت بشكل جيد، ولم تخالف النظم والقوانين، فسوف نعطيك أفضل منه مليون مرة، وستمكث فيه حينذاك طيلة حياتك، وليس أسبوعًا فقط، فهل هناك عاقل يختار أن يأنس بالاستجابة لرغباته لأسبوع واحد فقط ثم يكابد الشقاء طوال حياته، لا لشيء إلّا لمجرد استسلامه لداعي الرغبة، فيفوت بذلك على نفسه النعم المقبلة طيلة حياته.

إنّ ما سبق كان مجرّد مثال، فكلّ ما في هذه الدنيا نعم مؤقتة. فالله تعالى يخاطب الناس بأن هذه النعم التي تأنسون بها في الدنيا، هناك في الآخرة ما هو أفضل منها أضعافًا مضاعفة، فأنتم هنا في مقام الاختبار، وعليكم أن تختاروا، فهل من عاقل يفوت تلك النعم العظيمة مقابل شيء زهيد في الدنيا.

وقد ورد في الأحاديث ذكر الكثير مما أعدّه الله تعالى لعباده

الصالحين في الآخرة. جاء عن رسول الله ﷺ: «موضع سوط في الجنة، خير من الدنيا وما فيها»[١]، وورد عنه ﷺ: «قال تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[٢]. وجميع ذلك مقابل شيء واحد فقط، وهو أن ينال كلٌّ منكم إجازة مرور حتى يحظى بتلك النعم. وهذه الإجازة لا تعدو تجنب المعاصي في الدنيا، كما جاء في الآية الكريمة ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾، وفي آية أخرى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾.، كما ورد عن الإمام علي عليه السلام: «لن يحوز الجنة إلّا من جاهد نفسه»[٣]. إنّ على الإنسان أن يضع أمام نفسه هذه الحقيقة كلما دعته نفسه لمعصية، فلا ينبغي أن يفوّت على نفسه ذلك النعيم الأبدي المقيم من أجل شهوات زائلة.

(١) محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري. صحيح البخاري، ج٢، ص٣٤٤، حديث٣٢٥٠.
(٢) المصدر نفسه. ج٤، ص ٤٧٣، حديث٧٤٩٨.
(٣) عيون الحكم والمواعظ. ص ٤٠٧.

المعاصي والذنوب في الخلوات

يترك الإنسان بعض الأعمال، إمّا لقناعة منه بقبحها وضررها فيتركها، سواءً كان أمام الناس أو وحده، فالطعام أو الشراب القذر لا يشربه الإنسان؛ لأنه يستقبحه ويعرف ضرره، وهناك أشياء يتجنب الإنسان فعلها أمام الآخرين، ليس لأنه مقتنع بضررها، ولكن لأنّ الناس لا يرتضونها، فيتجنبها خوفاً من أن يُعاب عليها، أما إذا خلا بنفسه فيمارسها، ويمارس في الخلوات ما لا يمارسه أمام الناس.

وحالة أخرى أن الإنسان يتجنب هذا العمل؛ خوفاً من العقاب الذي ينتظره. ومن الأمثلة الواضحة على هذه الحالة، ارتكاب المخالفات المرورية مثلاً، فإذا علم السائق بخلوّ الشارع من رادار أو دورية مرور تُحصي عليه مخالفته، فإنه لا يتورّع عن ارتكاب المخالفة تلو الأخرى، فهو إنما يلتزم هرباً من العقوبة. وهكذا في كثير من المجالات، يتجنّب الناس ممارسة بعض الأعمال حينما يشعرون أن إقدامهم على هذا العمل أو ذاك تنالهم بسببه عقوبة من جهة مقتدرة.

واعظٌ من القلب

وهنالك مرتبة أرقى، وهي أن يتجنب الإنسان ممارسة بعض الأعمال بغضّ النظر عن كونها ضارّة أو غير ضارّة؛ لأنّ من يحبه يكره هذه الأعمال، فمثلاً قد يتجنّب ممارسة عملٍ مّا؛ لأنّه يكنّ مشاعر الحبّ والاحترام لوالده أو صديقه، اللذين يمقتان ممارسة هذا العمل، وإن لم يكونا شاهدين وقت ارتكاب العمل، فالباعث على الترك هنا أمر وجداني، سببه حبّ وتقدير، فإذا كان كذلك، فمن بابٍ أولى أن يكون سلوكنا هكذا مع الخالق جلّ وعلا، فهو المنعم الحقيقي المستحقّ للشكر، ولعلّ أدنى درجة من درجات الشكر العملي تتجلّى في تجنّب الذنوب والمعاصي، التي هي دون شكّ أو ريب سبب لكلّ ضررٍ وسوء تظهر آثاره على الفرد والمجتمع؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى لا يأمر بشيءٍ عبثاً، فلو لم يكن فيه مضرّة لما حرمه الله. يقول تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾[سورة الأعراف: الآية١٥٧]، لو لم يكن خبيثاً ضارًّا لما منعنا الله منه.

فليكن ترك المعاصي والذنوب أمراً نابعاً من تعلّقنا بالمنعم الخالق الذي إليه مآلنا ومصيرنا، بغضّ النظر عن الآثار المترتبة على العمل، ضارّة كانت أو غير ضارّة، فهو تعالى يقول لنا: إني أكره لكم ممارسة هذا العمل.

وفي خطابه تعالى لنا رادع قويّ للكفّ عن ارتكاب المعاصي، إذْ يكفي أن نتذكّر أنه سبحانه وتعالى مطّلع علينا في جميع أحوالنا،

فالنصوص والروايات تشير إلى أنّ المعاصي في الخلوات إثمها كبير، وإن كان الجهر بها إثمه مضاعف، وفي الخوف من الناس والجرأة على الله في الخلوات استهانة به جلّ شأنه، ففي حديث عن رسول الله ﷺ أوصى به أحد أصحابه، قال: «أُوصيكَ أنْ تَسْتَحِيَ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ كما تَسْتَحِي رجلًا من صالِحِي قَوْمِكَ»[١].

من هنا جاءت النصوص مكثّفة تلفت نظر الإنسان إلى أن يكون في حالة يقظة ووعي، ليحاسب نفسه في الخلوات، الإمام الصادق عليه السلام يقول فيما روي عنه: «من خلا بذنب فراقب الله تعالى ذكره فيه، واستحيى من الحفظة، غفر الله عزّ وجلّ له جميع ذنوبه، وإن كانت مثل ذنوب الثقلين»[٢].

وقال الله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً﴾ [سورة النساء، الآية:١٠٨].

وقال الشاعر:

وَإِذَا خَلَـوْتَ بِرِيْبَـةٍ فِـي ظُلْمَـةٍ ... وَالنَّفْسُ دَاعِيَةٌ إِلَى الطُّغْيَانِ
فَاسْتَحْيِي مِنْ نَظَرِ الإِلَهِ وَقُلْ لَهَا ... إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الظَّلَامَ يَرَانِي[٣]

(١) محمد ناصر الدين الألباني. سلسلة الأحاديث الصحيحة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، (الرياض: مكتبة المعارف)، حديث٧٤١.
(٢) الشيخ الصدوق أبو جعفر محمد بن علي ابن بابويه القمي. من لا يحضره الفقيه. ج٤، ص٤١١، حديث ٥٨٩٥.
(٣) نونية الإمام القحطاني الأندلسي.

والإمام الباقر عليه السلام يؤكّد أنّ المعصية في الخلوة هي استهانة بالله، حيث روى عنه عليه السلام: «من ارتكب الذنب في الخلاء لم يعبأ الله به»[١]، ولا شك أنّ الإنسان لا يريد أن يصل إلى مستوى يكون فيه بعيداً عن لطف الله ورحمته به، فلو جعلنا هذا النّص نُصب أعيننا عندما يغرينا الشيطان، وتهيمن علينا شهوة من الشهوات، لكنّا بعيدين عن غضب الله وسخطه، وفي الحديث القدسي يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيّه موسى عليه السلام: «يا موسى، .... واذكرني في خلواتك وعند سرور لذاتك أذكرك عند غفلاتك»[٢].

(١) بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٤٧.
(٢) الأمالي. ص٣٢٧.

المبادرة إلى الإقلاع عن الخطأ

إنّ من نعم الله على الإنسان حين يقع في معصية ما، أن تنتابه صحوة الضمير وإدراك الخطأ، وذلك مدعاة للمبادرة إلى التراجع والتوبة، التي تعني الشعور بالندم داخل النفس، ليقرّر بعدها المرء الإقلاع عن الذنب ومعالجة آثاره، هذه هي التوبة الحقيقية. بيد أن الشيطان، وهو العدو المبين للإنسان، قد يفوّت على المرء هذه الفرصة عبر وسائل وأساليب مضللة، أبرزها الدفع باتجاه التأخير والتسويف للتوبة، وصولًا إلى التراجع عنها في نهاية المطاف، وإنما تمحورت مهمة الأنبياء والأئمة في التنبيه ولفت الأنظار إلى مثل هذه المزالق، حتى لا ينخدع الناس بإغراءات الشيطان وأضاليله، من هنا جاءت كلمة الإمام الجواد عليه السلام: «تأخير التوبة اغترار، وطول التسويف حيرة، والاعتلال على الله هلكة، والإصرار على الذنب أمن لمكر الله ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾»[1].

إنّ على المرء أن يبادر فورًا إلى الإقلاع عن الخطأ والتوبة عن الذنب

---

(١) بحار الأنوار. ج٦، ص٣٠.

والمعصية. فقد يدرك أحدهم أنه أخطأ ويضمر في نفسه الإقدام على التوبة والإصلاح، لكنه يؤجل ذلك تحت تأثير إغواء الشيطان الذي يزين له تسويف التوبة. ثمة من يرتكب خطأ ما فيعترف بخطئه، غير أنّ الاعتراف بالخطأ شيء والتراجع والإقلاع عنه شيء آخر، ولذلك تجد البعض يتحجج بأنّ الإقلاع عن الأخطاء يحتاج إلى وقت، وهنا يكمن دور الشيطان. الذي يسوّف للإنسان ويجعله متباطئًا عن إنجاز مهمة التوبة عن الذنب والخطأ.

مخاطر تأخير التوبة

إنّ لتأخير التوبة وتسويف الإقلاع عن الذنوب مخاطر كبيرة، نذكر منها:

أولًا: إنّ تأخير التوبة مدعاة لخسارة الإنسان لطف الله تعالى في محو المعصية والعفو عن الذنب عاجلًا. فكثير من النصوص الدينية تشير إلى أنّ الله سبحانه وتعالى إنما يمحو الذنب عن عباده إذا ما سارعوا إلى التوبة، حتى كأنهم لا ذنب لهم. فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ العبد إذا أذنب ذنبًا أجّل من غدوة إلى الليل، فإنّ استغفر الله لم يكتب عليه»[1]. وكأن في ذلك بمقتضى قول الإمام عليه السلام فرصة للإنسان للمراجعة والتوبة قبل أن تكتب عليه معاصيه، وعنه عليه السلام: «العبد المذنب إذا أذنب ذنبًا أجّله الله سبع ساعات فإن استغفر الله لم

(١) الكافي. ج٢، ص ٤٣٧، حديث١.

يكتب عليه شيء، وإن مضت الساعات ولم يستغفر كتب عليه سيئة»[١]. ويقول أمير المؤمنين عليه السلام فيما روي عنه: «إن قارفت سيئة فعجل محوها بالتوبة»[٢].

ثانيًا: ينطوي تأجيل التوبة على خطر احتمال ضعف إرادة المرء واهتزاز عزيمته على التوبة. ويعود ذلك إلى أنّ الإنسان كلما استمر في قبول الذنب، فإنه سرعان ما يتكيف معه ويتطبع به، من هنا تأتي أهمية اقتناص لحظات الهداية لاتخاذ قرار التوبة، توقيًا من إمكانية التراجع عن هذه الخطوة فيما بعد. ولعل أقرب مثال يذكر في هذا السياق ما نجده من تقلبات اتخاذ القرار لدى الأطراف المتنازعة في قضايا إصلاح ذات البين، إذ تجد بعض الأشخاص يوافقون على تسوية الخلاف مع أقربائهم بعد طول حديث معهم، وتجدهم يعدون بإصلاح الأمر في الغد، إلّا أنهم سرعان ما يتراجعون عما عزموا عليه في اليوم التالي وكأنّ شيئًا لم يكن.

هنا يأتي دور الشيطان الذي يعمل بجدّ في هذه اللحظات، ولذلك على الإنسان ألّا يؤجل التوبة والإقلاع عن الذنب فور تنبهه إلى الخطأ والذنب. ومن هنا نفهم قول الله تعالى حين يتحدث عن المسارعة في التوبة ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّـهِ لِلَّذِينَ

(١) الكافي، حديث٣.
(٢) جامع أحاديث الشيعة، ج ١٤، ص ٣٢٨.

يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّـهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. ومضمون التعبير القرآني ﴿يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ أي لا يتأخرون في التوبة. وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام القول: «لا دين لمسوف بتوبته»[1]، وفي ذلك إشارة خطيرة من الإمام عليه السلام بأنّ من يسوّف التوبة سيكون عرضة لفقدان الحالة الدينية في نفسه.

ثالثًا: عدم ضمان المرء لحياته. فإلى متى سوف يؤجّل المرء التوبة؟ ومتى سيقلع عن الذنب؟ أتراه يضمن حياته؟ أفلا يخشى هجوم الأجل عليه وهو بعد لم ينجز التوبة؟ ورد عن علي عليه السلام: «مسوّف نفسه بالتوبة من هجوم الأجل على أعظم خطر»[2].

الحذر من التسويف

من هنا كان على الإنسان أن يبادر للإقلاع عن أيّ ذنب ومعصية. سواء على مستوى العلاقة مع الله أو الناس، وكثيرًا ما تجد أناسًا لا يؤدون الحقوق الشرعية، مع أنهم يدركون أنّ ذلك حق عليهم، لكنهم يسوّفون في الأمر، والسؤال هنا؛ إلى متى التسويف؟ وهل تضمن استمرار حياتك وقوة إرادتك؟ فلطالما رأينا أشخاصًا تحدثوا عن قناعة بالحقوق الشرعية لكنهم لم يؤدوا الحق الشرعي تحت ضغط التأجيل

(١) عيون الحكم والمواعظ. ص٥٣٨.
(٢) مستدرك الوسائل. ج ١٢، ص ١٣٠.

والتسويف، ولم يمهلهم الأجل طويلًا. وعلى غرار ذلك أشخاص آخرون انخرطوا في مشاكل مع أزواجهم وجيرانهم وأحدهم يعلم بخطئه، لكن مع ذلك يسوّف في إصلاح أمره، فهل يضمن حياته؟

إنّ على الإنسان أن يبادر إلى التوبة بمجرد أن يتنبه إلى الخطأ والمعصية. وهذا ما يوجه إليه الإمام الجواد بقوله عليه السلام: «تأخير التوبة اغترار- أي حالة من الغرور يعيشها الإنسان الذي يعتقد بطول الأمل والعمر- وطول التسويف حيرة - أي يجعل الإنسان حائرًا بين الصح والخطأ من حيث السلوك، والاعتلال على الله هلكة - أي يتحجج بالعثور على فرصة مناسبة، في وقت آخر، هذه كلها أعذار ﴿بَلِ الْإِنسان عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾، والإصرار على الذنب أمن لمكر الله ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾».

اجتناب الظلم

التأكيد على اجتناب الظلم، والتحذير منه، هو من أساسيات التعاليم والتوجيهات الدينية، لأنّ الإنسان في هذه الحياة مطالب بمراعاة حقوق الله وحقوق الناس وحقّ الله تعالى هو توحيده وعبادته والتزام أو امره، أما حقوق الناس، يُراد بها عدم الاعتداء على شيء يخصهم في الجانب المادي أو المعنوي.

وتشير النصوص إلى أنّ الإنسان لو انقطع لعبادة الله سبحانه، وآمن بوحدانيته، وتفرغ لعبادته، لكنه كان يتجرّأ على النيل من حقوق الآخرين، فإن عبادته لله تعالى لن تشفع له، ولن تحجبه عن العذاب

والعقوبة؛ لأنّ الله تعالى حذّر من الظلم في آيات كثيرة، وعلى الإنسان أن يعرف أن الظلم يتمثل حتى في القضايا اليسيرة، في علاقاته مع الآخرين، كأن تزجر إنسانًا، أو تنهره، أو تشتمه بغير حقّ، أو تمنع إنسانًا من الوصول إلى حقّه، كلّ ذلك من مصاديق الظلم.

لعن الظالمين

نحن نردّد «لعن الله الظالمين»، ولكن من هم الظالمون؟ الظالم هو من اعتدى على حقّ من الحقوق، أنت إذا اعتديت على حقّ أحدٍ من أبنائك، فأنت مشمول بهذا العنوان، وإذا اعتديت على حقّ زوجتك، أو على حقّ جارك أو زميلك، فهذا ظلم يستحق اللعن من قبل الله تعالى.

في كثير من الأحيان نتصور أن الظلم هو تلك الصورة المكبرة، وأنّ من يظلم الناس هو القوي المتسلّط، هذه صورة مكبرة للظلم، لكن الظلم يتمظهر أيضاً في الاعتداء على حقوق الآخرين، في أيّ موقع كان، وعلى أيّ مستوى، لذلك على الإنسان أن يكون حذرًا من ظلم الآخرين.

وعلى الإنسان من الناحية النفسية أن يقرّر الابتعاد عن الظلم، الرواية الواردة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام تقول: «من أصبح لا ينوي ظلم أحد، غفر الله له ما أذنب ذلك اليوم ما لم يسفك دمًا أو يأكل مال

يتيم حرامًا»[١].

وروى عليه السلام عن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «من أصبح لا يهمّ بظلم أحد، غفر الله له ما اجترم»[٢].

بعض الناس منذ أن يستيقظ تدور في ذهنه نيّات ظلم للآخرين: سأعمل كذا مع فلان، وأتكلم بكذا على فلان، يصبح وفي ذهنه مشاريع ضدّ هذا، وضد ذاك، وهو في الواقع يحرم نفسه من توفيق الله، ومن عفوه وغفرانه.

على الإنسان في صباح كلّ يوم، وقبل أن يخرج للناس، أن يقرّر في نفسه رعاية حقوق الآخرين، وعدم الاعتداء على شيءٍ منها، وهذا إيحاء ذاتي.

علماء النفس يتحدّثون عن العادات التي على الإنسان أن يتعوّدها، وأن يوحي إلى نفسه بها، أن يتذكر بعض هذه التوجّهات في نفسه: قرّر في نفسك كل يوم أنك لا تسيء إلى أحد، ردّد هذا الكلام في داخل نفسك، هذا أمر مهم، وإيحاء ذاتي، يخلق أرضية تحصِّن الإنسان إلى حدٍّ ما من الوقوع في خط الظلم.

التحذير من الظلم

وللإمام الصادق عليه السلام أقوال كثيرة تحذّر من الظلم:

---

(١) الكافي. ج٢، ص٣٣٢.
(٢) المصدر نفسه.

روى عن جده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «مَنْ خَافَ اَلْقِصَاصَ كَفَّ عَنْ ظُلْمِ اَلنَّاسِ»[١].

حينما تسيء لأحد، أو تظلمه، لا تعتقد أنّ المسألة قد انتهت، شاهدك أحدٌ وأنت ترتكب الظلم أم لم يشاهدك أحد، أحسّ أحدٌ بما تعمل أم لم يحسّ، يجب أن تعلم أنّ هناك قصاصًا في يوم القيامة، ومن خاف القصاص في الآخرة فإنه لا يظلم أحدًا من الناس.

الروايات التي تتحدّث عن القصاص كثيرة، نذكر منها نموذجًا عن العلاقة مع الزوجة، ورد في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «فَأَيُّ رَجُلٍ لَطَمَ اِمْرَأَتَهُ لَطْمَةً، أَمَرَ اَللَّـهُ عَزَّ وَ جَلَّ مَالِكاً خَازِنَ اَلنِّيرَانِ، فَيَلْطِمُهُ عَلَى حُرِّ وَجْهِهِ سَبْعِينَ لَطْمَةً فِي نَارِ جَهَنَّمَ»[٢]. زوجتك معك في البيت، ولا أحد يدري عمّا فعلته بها، وهي لم تصرخ أو تشتكي لأحد، هل انتهى الموضوع؟ لا؛ لم ينته، هناك رقابة وحساب، هناك قصاص يوم القيامة، وهكذا في سائر موارد الظلم.

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَنْ ظَلَمَ مَظْلِمَةً أُخِذَ بِهَا فِي نَفْسِهِ أَوْ فِي مَالِهِ أَوْ فِي وُلْدِهِ»[٣].

من ظلم مظلمة، أيّ اعتدى على الآخرين، المسألة قد لا تقتصر على القصاص في يوم القيامة، وإنما في الدنيا أيضًا يكون هناك ردّ

(١) الكافي. ج٢، ص٣٣٥.
(٢) مستدرك الوسائل. ج١٤، ص٢٥٠.
(٣) الكافي. ج٢، ص٣٣٢.

فعل وقصاص، كأن يصيبه شيء في نفسه، وقد لا يكون فوريًّا، إنما في وقت آخر، وقد لا يكون بالطريقة نفسها، فالله سبحانه يمهل ولا يهمل.

بعض الناس يتصوّر أنه حينما يتصرف في بيته، مع أبنائه أو زوجته، أو في عمله مع زملائه، أو مع من هم تحت رعايته كالخادمة في المنزل، أو السائق، يتصوّر أنّ الأمر تحت السيطرة، وأن لا تداعيات لتصرفاته، إنّ الله تعالى عادل حكيم، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾، ورد في تفسير الآية: أي لا تفوته مظلمة مظلوم، هناك رقابة ومتابعة.

ولعلّ سائلًا يسأل عن قول الإمام عليه السلام: «وفي ولده»، ما ذنب الأولاد؟ في الواقع هذه نتائج طبيعية؛ لأنّ أيّ ظلم في المجتمع، يهدّد مختلف شرائح وأفراد المجتمع، أنت حينما تظلم إنما تكرس وتشجّع الحالة العدوانية، هذه الحالة لها ارتدادات قد تصل إلى أولادك شئت أم أبيت.

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَا مِنْ مَظْلِمَةٍ أَشَدَّ مِنْ مَظْلِمَةٍ لَا يَجِدُ صَاحِبُهَا عَلَيْهَا عَوْناً إِلَّا اللَّـهَ عَزَّ وَجَلَّ»[1].

الطرف الآخر إذا كان ضعيفًا لا يستطيع أن ينتصف لنفسه، كأن يكون موظفًا تحت إشرافك، تتخذ قرارات مجحفة في حقّه، كمنع ترقيته، أو الإجحاف به في التقرير الذي ترفعه عن عمله، وتدّعي أنّ ذلك من صلاحياتك، وتعلم أنه لا يستطيع أن يفعل ضدّك شيئًا؛ لأنك

(١) الكافي. ج٢، ص٣٣١.

أقوى منه. لا تعتقد ذلك؛ لأنّ هذا الضعيف له ربّ عادل قوي، تذّكر وأنت تكتب التقرير عنه أنّ الله يراقبك، وأنه قادر على أن ينتقم لهذا الضعيف منك.

فعلى الإنسان أن يكون حذرًا من أن يظلم أحدًا.

أكل المال الحرام

من أهم الحُرمات بعد حرمة النفس هي حرمة المال، فالإنسان يهتم بماله، ويسعى لحمايته والحفاظ عليه، ولا يقبل أي اعتداءٍ على ما يخصّه.

لهذا كان في المجتمع الإنساني عبر التاريخ أنظمةٌ وقوانين تحمي أموال الناس وحقوقهم، لكنّها وحدها لا تكفي؛ لأنّ الإنسان قد يجد طريقًا يحتال به على القانون.

وميزة الأديان الإلهية أنها تخلق رادعًا ذاتيًّا في نفس الإنسان، يمنعه من الاعتداء على أموال الآخرين، وأعراضهم، وأشخاصهم، وهذا الرادع الذاتي هو جوهر التديّن. وبعدم توفر هذا الرادع فمظاهر التدين لا قيمة لها. فالتديّن الحقيقي يتّضح من احترام الإنسان لحقوق الآخرين، لذا ورد عن رسول الله ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلَمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[1].

من هنا تُحذّر النصوص الدينية الإنسان من الاقتراب من المال

(١) صحيح البخاري. كتاب الإيمان، ج١، ص١١، حديث١٠.

الحرام، وهو مال الآخرين بغير رضاهم، أو ما يأتي عن طريق غير مشروع، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٨٨].

والتصرف في المال الحرام نتائجه وخيمة، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ أَكَلَ لُقْمَةَ حَرَامٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً»[١].

وعنه ﷺ: «إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ حرَّمَ الجَنَّةَ على جسَدٍ غُذِّيَ بحَرامٍ»[٢].

وعنه ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ، النَّارُ أَوْلَى بِهِ»[٣].

وعنه ﷺ: «اَلْعِبَادَةُ مَعَ أَكْلِ اَلْحَرَامِ كَالْبِنَاءِ عَلَى اَلرَّمْلِ. (وَقِيلَ: عَلَى اَلْمَاءِ)»[٤].

من مصاديق أكل المال الحرام

رَوَى سَمَاعَةُ بْنُ مِهْرَانَ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اَللَّهِ عليه السلام: اَلرَّجُلُ مِنَّا يَكُونُ عِنْدَهُ اَلشَّيْءُ يَتَبَلَّغُ بِهِ، وَعَلَيْهِ دَيْنٌ، أَيُطْعِمُهُ عِيَالَهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ اَللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمَيْسَرَةٍ، فَيَقْضِيَ دَيْنَهُ، أَوْ يَسْتَقْرِضُ عَلَى ظَهْرِهِ فِي خُبْثِ اَلزَّمَانِ، وَشِدَّةِ اَلْمَكَاسِبِ، أَوْ يَقْبَلُ اَلصَّدَقَةَ؟ فَقَالَ: «يَقْضِي بِمَا عِنْدَهُ

(١) بحار الأنوار. ج٦٣، ص٣١٤، حديث ٧.
(٢) كنز العمال. ج٤، ص١٤، حديث٩٢٦١.
(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل. مسند جابر بن عبدالله، ج٥، ص٢٧٣، حديث ١٥٣٥٨.
(٤) بحار الأنوار. ج١٠٠، ص١٦، حديث ٧٣.

دَيْنَهُ، وَلاَ يَأْكُلُ أَمْوَالَ النَّاسِ إِلاَّ وَعِنْدَهُ مَا يُؤَدِّي إِلَيْهِمْ، إِنَّ اللَّـهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾[1].

وروي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه يعني ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ «اَلْيَمِينَ الْكَاذِبَةَ، يُقْتَطَعُ بِهَا الْأَمْوَالُ»[2].

وكذلك أخذ ما لا يستحقّ من الإرث: فهناك من ينفذ من ثغرة الاختلاف الفقهي بين السنة والشيعة، في بعض مسائل الإرث، كالتعصيب والوصية للوارث، فيذهب الشيعي للمحكمة السنية، ليأخذ عبرها ما لا يحقّ له حسب مذهبه.

- **ومن أبرز مصاديق أكل الحرام: ابتزاز المال من الآخرين، كالزوجة دون رضًا منها.**

حيث لا يحقّ للزوج أخذ شيء من مال زوجته إلّا برضاها، ونفقتها واجبة عليه، وإن كانت الزوجة ثريّة. إنّ بعض الأزواج يبتزّون زوجاتهم الموظّفات، فيدفعن لهم اضطرارًا، وذلك حرام شرعًا، صحيح أنه ينبغي للزوجة أن تساعد زوجها ولها في ذلك الثواب والأجر، لكن ليس عن طريق الفرض والابتزاز.

- **ومن أبرز مصاديق أكل الحرام: الأخذ من المال العام دون مجوّز شرعي.**

فلا يجوز للموظّف في أيّ جهة حكومية، أن يتصرف في شيء من

(١) من لا يحضره الفقيه. ج٣، ص١١٢، حديث ٤٧٦.
(٢) الفضل بن الحسن الطبرسي. مجمع البيان، ج٢، ص٥٠٦.

أموال وإمكانات دائرته لشأن شخصي، دون إذن من الجهة المسؤولة.

أكل الحرام شقاء في الآخرة

ورد عنه ﷺ أنه قال: «يُؤْتَى يومُ القيامةِ بأناسٍ مَعَهُمْ مِنَ الحَسَناتِ كأمثالِ جبالِ تُهامَةَ، حتى إذا جِيءَ بِهِمْ جَعَلَها اللهُ هباءً مَنْثُورًا، ثُمَّ يُقذِفُ بِهِمْ في النَّارِ.

قِيلَ: يا رسولَ اللهِ كيفَ ذِلكَ؟

قالَ ﷺ: كانُوا يُصلُّون، ويَصومُون، ويُزكّون، ويحجون، غير أنَّهم كانُوا إذا عَرَضَ لَهُمْ شيءٌ مِنَ الحَرَامِ أخذوه، فأحْبَطَ اللهُ أعمَالَهُم»[١].

وورد عنه ﷺ أنه قال: «مَن اشْتَرَى ثَوْبًا بِعَشَرَةِ دَرَاهِمَ، وَفِيهِ دِرْهَمٌ حَرَامٌ لَمْ يَقْبَل اللّه عز وجل لَهُ صَلَاةً مَا دَامَ عَلَيْهِ»[٢].

وعنه ﷺ: «مَنْ لَمْ يُبَالِ مِنْ أَيْنَ اِكْتَسَبَ اَلْمَالَ لَمْ يُبَالِ اَللَّـهُ مِنْ أَيْنَ أَدْخَلَهُ اَلنَّارَ»[٣].

وعنه ﷺ: «من حجّ بمال حرام فقال: لبيك اللهم لبيك، قال الله عزّ وجلّ: لا لبيك ولا سعديك وحجّك مردود عليك»[٤].

ورُئيَ بعض الصالحين بعد موته في النوم، فقيل له: «ما فعل الله

(١) محمد بن عثمان الذهبي. كتاب الكبائر، ص١٠٣.
(٢) مسند أحمد بن حنبل. مسند عبدالله بن عمر ج٢، ص٤٥١، حديث٥٧٣٢.
(٣) وسائل الشيعة. ج١٦، ص٩٨، حديث ٢١٠٨٠.
(٤) كنز العمال. ج٥، ص٢٧، حديث ١١٩٠٠.

بك؟ قال خيرًا، غير أني محبوس عن الجنة بإبرة استعرتها ولم أردّها»[١].

فعلى الإنسان أن يكون حذرًا جدًّا وحسّاسًّا تجاه مال الغير، فلا يقبل أن يقترب من المال الحرام، فإنّ ذلك يمنع استجابة الدعاء، وقبول العمل، وبركة الرزق، وصلاح النسل والذرية.

(١) كتاب الكبائر، ص١٠٣.

محاصرة المعصية

وضعت الشريعة وسائل عديدة لتحصين المجال الاجتماعي، ومنها التشديد على ضبط السلوك الفردي، لتقييد ومحاصرة المخالفات والمعاصي من الإفشاء والانتشار. فالمعصية جرم عظيم يجترئ من خلالها العبد على ربه وخالقه. فقد تغلب الإنسان شهوته وجهله، وتضعف إرادته، فيتجرأ على معصية خالقه جلّ وعلا، ذلك الخالق المنعم الذي له حق الشكر والطاعة على عبده. وهو سبحانه إنما توجه بالأوامر والنواهي رحمة بعبده المحتاج إلى لطفه ورحمته، لكن هذا العبد يجنح نحو التمنع وعدم الامتثال لهذه الأوامر والنواهي التي وضعت لمصلحته. إنّ المعصية جرم عظيم لا ينبغي للإنسان أن يقع فيه، لذلك وجب أن تحاط المعاصي بهالة من التهيب والحذر في نفس الفرد، والمجال الاجتماعي العام على حدٍّ سواء. ولعل أحد الأساليب التي وضعتها الشريعة لإيجاد هذه الهالة هو محاصرة المعصية.

العباد ليسوا معصومين من ارتكاب الأخطاء، لكنهم مطالبون في

المقابل بالتزام الستر والحدّ من إفشاء مخالفاتهم ومعاصيهم على الملأ. فإذا حصلت المعصية فينبغي أن تحاصر ضمن نطاقها الأضيق، وذلك بالحرص على ألّا ينتشر خبرها؛ لأنّ من تداعيات الإفشاء بالمخالفات والمعاصي، أن تخفّ وطأتها على النفوس، الأمر الذي يجعلها أمرًا اعتياديًا مألوفًا. إنّ الله تعالى يريد أن تبقى المعصية محاطة بهالة من الحذر والتهيب في الوسط الاجتماعي العام، فلا تكون مبتذلة وكأنها أمر طبيعي يمكن أن يطال أيّ أحد.

التستر على المعصية

من هنا نستطيع أن نفهم كيف جاءتنا النصوص والتعاليم الدينية مشددة على ضرورة أن يتكتم المرء على معاصيه التي يقع فيها، وألّا يجهر بها، فالإجهار بالمعصية ذنب آخر يضاف إلى المعصية. فقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «مجاهرة الله سبحانه بالمعاصي تعجل النقم»[١]، وورد عنه عليه السلام: «إياك والمجاهرة بالفجور فإنها من أشد المآثم»[٢]، إنه من الإثم الكبير أن يقع الإنسان في المعصية ثم يجاهر بما فعل، فالمرء مأمور بالتستر على مخالفاته ومعاصيه، ذلك أن إفشاء المعصية يقود إلى تطبع النفوس بها، فلا يتردد أحد بعد ذلك عن اقترافها جهرة. ولعلّ الأسوأ من ذلك، هو الانقياد نحو التبجح بفعل المعاصي، حتى إنك تجد بعض الناس يفاخرون بمعاصيهم،

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٣٨٧، حكمة ٣١.
(٢) المصدر نفسه. ص٩٦، حكمة ٨٤.

كما لو أنهم حققوا عملًا بطوليًّا يستحق الثناء!، وهذا جرم أكبر من المعصية ذاتها.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «التبجح بالمعاصي أقبح من ركوبها»[١]، وعنه عليه السلام في رواية أخرى: «لا وزر أعظم من التبجح بالفجور»[٢].

إنّ على المرء أن ينأى بنفسه تمامًا عن الحديث عن معاصيه التي سبق وأن تورط فيها. وقد روي في هذا السياق عن الإمام الرضا عليه السلام عن جده المصطفى صلى الله عليه وآله: «المذيع بالسيئة مخذول والمتستر بها مغفور له»[٣]، فذلك الذي أخطأ ووقع في المعصية فإنّ الله قد يغفر له، ولا يعني ذلك مبررًا لأن يستسلم المرء للمعاصي باستمرار، فيقترف الذنوب في الخفاء ويتستر عليها، بل ينبغي أن يحذر المرء الوقوع في المعصية في السر والعلن، لكن لو حصل ووقع في المعصية فهو مطالب بالتستر والنأي عن إفشائها على أيّ نحوٍ من الأنحاء.

لا مبرّر لكشف ذنوبك

وقد يجد بعض الناس أنفسهم تحت ضغط هائل من تأنيب الضمير بعد ارتكاب المعصية، فيندفعون لإفشاء أسرارهم بغية التنفيس، إلّا أنّ ذلك غير صحيح. فأوامر الشارع في هذا الشأن صريحة، نحو القطع بعدم الحديث عن المعاصي والأخطاء الشخصية أمام أيّ أحد كان،

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٢١، حكمة ٣٠٦.
(٢) عيون الحكم والمواعظ. ص٥٤٠.
(٣) الكافي. ج ٢، ص٤٢٨.

وتحت أيّ مبرر. وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كلّ أمتي معافى إلّا المجاهرين»[١]، ويقول ﷺ: «وإنّ من الإجهارِ أن يعملَ العبدُ بالليلِ عملًا، ثم يصبحُ قد ستره ربُّه، فيقولُ: يا فلانُ قد عمِلتُ البارحةَ كذا وكذا. وقد بات يسترُه ربُّه. فيبيتُ يسترُه ربُّه، ويُصْبِحُ يكشفُ سترَ اللهِ عنه»[٢]. وفي رواية أخرى عنه ﷺ: «اجتنبوا هذه القاذورة ـ المعاصي ـ التي نهى الله عنها فمن ألم فليستتر بستر الله»[٣]. لذلك يظلّ ستر المعاصي مطلبًا أساسيًّا فلا مبرر لإفشائها مهما كانت الأسباب.

وأبعد من ذلك، ذهبت الشريعة إلى النأي عن إفشاء المعاصي حتى لغرض التطهر عبر إقامة الحدود. فقد يتساءل البعض عن حقوق الله التي انتهكها خصوصًا تلك التي وردت فيها الحدود والتعزيرات، فهل ينبغي لمثل هؤلاء أن يتقدموا للحاكم الشرعي ليقيم عليهم الحدّ؟ يأتي الجواب القطعي هنا؛ لا يطلب الشارع من الإنسان فعل ذلك، بل الوارد هو النهي عن الإقدام على مثل هذا السلوك، فقد أتى النبي ﷺ رجل فقال: إني زنيت [فطهّرني] فصرف النبي ﷺ وجهه عنه، فأتاه من جانبه الآخر ثم قال مثل ما قال، فصرف وجهه عنه، ثم جاء الثالثة فقال له: يا رسول الله، إني زنيت وعذاب الدنيا أهون لي من عذاب الآخرة.

---

(١) كنز العمال. ج٤، ص٢٣٩، حديث ١٠٣٣٧.

(٢) مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري. صحيح مسلم، ص١٥٩٥، حديث٢٩٩٠.

(٣) محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري. المستدرك على الصحيحين، ج ٤، ص٢٤٤.

فقال رسول الله ﷺ: أبصاحبكم بأس يعني جنة؟ فقالوا: لا، فأقرّ على نفسه الرابعة فأمر به رسول الله ﷺ أن يرجم[١]. وقد أراد رسول الله ﷺ بذلك أن يلتمس له العذر وأن يمنحه فرصة ليستر على نفسه، ولكنه أبى إلّا أن يقرّ على نفسه أربع مرات فكان لا بُدّ من إقامة الحدّ عليه.

وورد في سيرة أمير المؤمنين عليه السلام أنّ رجلًا أتاه في الكوفة، فقال يا أمير المؤمنين إني زنيت فطهرني، فقال له عليه السلام: اذهب حتى نسأل عنك، ثم عاد مرة أخرى وسأل نفس الشيء، وقال له الإمام مثل القول الأول، إلى أن أقرّ أربع مرات فقال لقنبر: احتفظ به، ثم غضب، وقال: ما أقبح بالرجل منكم أن يأتي بعض هذه الفواحش فيفضح نفسه على رؤوس الملأ، أفلا تاب في بيته، فوالله لتوبته فيما بينه وبين الله أفضل من إقامتي عليه الحد[٢].

هكذا يريد الله من الإنسان أن يستر على نفسه، فلا تكون المعصية مبتذلة على المستوى الشخصي أو الاجتماعي، لذلك لم يرد في الشريعة ما يجري في الكنيسة المسيحية مثلًا، بأن يأتي المذنب للكاهن ويعترف بين يديه بذنوبه حتى يطلب له المغفرة، فليس مطلوبًا من المسلم أن يأتي للمرجع أو عالم الدين ويقرّ له بذنوبه، إنّ استفتاء العالم وطلب النصيحة والمشورة أمر مطلوب، لكن حتى لو اضطر السائل إلى ذلك فليكن على طريقة القول؛ ماذا لو أنّ شخصًا ارتكب كذا، لا أن يقول أنا قمت بكذا واقترفت كذا.

(١) الكافي. ج ٧، ص ١٨٥.
(٢) وسائل الشيعة. ج ٢٨، ص٣٦.

كما لا ينبغي أن يفشي المرء مخالفاته حتى أمام الخلّص من أصدقائه. لأنّ ذلك سيخفف من وقع المعصية في نفوسهم، علاوة على ما سيترك في نفوسهم من انطباعات غير مرغوبة تجاهه.

وينسحب الأمر ذاته على الأزواج أيضًا، فقد ينجر بعض المخطوبين أو المتزوجين حديثًا، نحو الحديث عن ماضيهم الخاص فيسرد أحدهما للآخر، بحسن نية، كيف فعل كذا أو قام بكذا!، وهذا خطأ فادح، إذ ليس مطلوبًا من البنت ولا الشاب أن ينجرّا إلى تقديم مثل هذه الاعترافات، علاوة على غياب أيّ مبرر شرعي لحديث من هذا القبيل، بل على النقيض من ذلك، المطلوب من الإنسان أن يستر على نفسه كما ستر الله عليه. فالله يريد من الناس أن يتعاملوا مع بعضهم بعضًا حسب ظواهرهم، لذلك لم يأذن بالتجسس ولا البحث عن أحوال الناس الخاصة ونشر معايبهم، كما لا يسمح للإنسان نفسه أن يتحدث عن عيوبه. وقد رأينا آثار ذلك في بعض المشاكل، حيث تلجأ بعض الفتيات لإخبار خطّابهن بما فعلن في الماضي، وكيف تبن عن ذلك لاحقًا، لكن بعض الشباب قد لا يتحملون ذلك، حتى لو كان هو نفسه قد وقع في ذنوب مثلها أو أشدّ منها، فلا يعود يرتاح لهذه الحالة ما قد يجر إلى انفصام عرى الحياة الزوجية.

هكذا شددت الشريعة على محاصرة المعصية بالتكتم والتعتيم عليها.

الفصل الثالث: **الحياة الأخرى**

تطلّع الإنسان للخلود

تُعَدّ الرغبة في البقاء والخلود في الحياة مسألة غريزية متجذّرة، يشترك فيها كلّ البشر. ذلك أنّ الإنسان، بعد أن يذوق حلاوة الحياة، يقلقه هاجس الرحيل عنها، ويزعجه مجرّد التفكير في ترك الدنيا والخروج منها، هذه الرغبة في البقاء وتحاشي الموت، هي التي تحرّض الإنسان على دفع الأضرار والأخطار عن نفسه، كما تدفعه إلى التفكير فيما يخدم بقاءه في هذه الحياة.

الخلود وَهْمٌ أم حقيقة؟

وقد تساءل الفلاسفة منذ القدم، حول ما إذا كانت الرغبة في الخلود، هي رغبة وتطلّع إلى أمر وهمي، أم أنها تكشف عن سعيٍ لأمر حقيقي ممكن؟

ذهب العلماء والفلاسفة الربانيون إلى الاستدلال بوجود هذه الرغبة، على حقيقة وجود الآخرة والمعاد، فالإنسان لدية رغبة في الحياة الأبدية، والحياة الدنيا لا خلود فيها. من هنا يأتي السؤال، عن سبب إيجاد هذه الرغبة من قبل الله تعالى في نفس الإنسان؟ سيّما وأنه

تعالى لم يجعل الرغبات والغرائز في نفس الإنسان اعتباطًا، بقدر ما ينبغي أن تكشف عن حقائق فعلية، وعلى الإنسان أن يفتش عن الطريق الصحيح الموصل إليها.

وتناول العالم الكبير الفيض الكاشاني، في تفسيره لوجود الرغبة في الخلود في نفس الإنسان، بقوله: «وكيف تنعدم النفس وقد جعل الله عزّ وجلّ بواجب حكمته في طبائعها محبّة الوجود والبقاء، وجعل في جبلّتها كراهة العدم والفناء، وقد ثبت وتيقّن أنّ بقاءها ودوامها في هذه النشأة الحسّية أمر مستحيل، فلو لم يكن هناك نشأة أخرى، تنتقل إليها، لكان ما ارتكز في طبائعها، وأودع في جبلّتها، في محبة البقاء الأبدي، والحياة السرمدية، باطلًا ضائعًا، تعالى الله عن ذلك»[1]. فوجود الرغبة في الخلود عند الإنسان دليل على أنّ البقاء والخلود أمر قائم ممكن، ودليل على وجود عالم آخر لا بُدّ وأن يتحقق فيه، وغاية ما هناك، أنّ الرسالات السماوية ترشد الإنسان إلى أن هذه الرغبة، القابلة للتحقق وجدانًا، ليست في وارد التحقق في عالم الدنيا، وإنما في ذلك العالم آخر.

وكما قال أبو العلاء المعري:

خُلِقَ النّاسُ للبَقَاءِ فضَلّتْ أُمّةٌ يَحْسَبُونَهُمْ للنّفادِ
إنّما يُنْقَلُونَ مِنْ دارِ أعْمالٍ إلى دارِ شِقْوَةٍ أو رَشَادِ

(١) محسن الفيض الكاشاني، علم اليقين في أصول الدين، ج ٢، ص٨٣٧.

سعي الانسان نحو الخلود

إنّ الرغبة في الحياة أمرٌ فطري غريزي متجذّر في نفس الإنسان، منذ أن يفتح عينه على الدنيا، وهي رغبة مشروعة يعزّزها الدين. فلا يحقّ للإنسان شرعًا أن يختار الموت ويقتل نفسه، فالانتحار أمرٌ محرّم في كلّ الأحوال، حتى وإنْ كان على سبيل (الموت الرحيم) كما بات يعرف، وذلك بأن يختار المريض الذي لا يرجو الشفاء الموت على تكبّد آلام المرض طويلًا، فالبقاء على قيد الحياة قرار إلهي ينبغي أن يحترمه الإنسان. كما أنّ من النصوص الدينية ما يفيد بكراهة تمنّي الإنسان الموت.

ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يتمنّى أحدكم الموت لضرٍّ نزل به»[١].

وعنه ﷺ: «لا يتمنَّى أحدُكمُ الموتَ، إمّا محسِنًا فلعلَّه يَزدادُ، وإما مُسيئًا فلعلَّه يَستَعتِبُ»[٢].

إنّ التشبّث بالبقاء على قيد الحياة أمرٌ فطري طبيعي، لذلك انطلت على أبينا آدم خدعة إبليس، ونجح في إخراجه من الجنة؛ لأنه دخل إليه من مدخل حبّه للخلود والبقاء، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾، فهي رغبة أصيلة متجذّرة منذ الإنسان الأول.

---

(١) صحيح البخاري. ج٤، ص١٧٣، حديث٦٣٥١.
(٢) المصدر نفسه. ج٤، ص٤٠١، حديث٧٢٣٥.

وما زال الإنسان في بحثٍ دائب عن تحقيق الرغبة في الخلود. ويتجلى ذلك في البحث عن سبُل إطالة عمره في هذه الحياة، فبعد أن كان معدّل أعمار البشر قصيرًا فيما سبق، دفع حبّهم للبقاء إلى تطويرهم أساليب وسبلًا تطيل أعمارهم، وكلما توفرت البيئة على سبل الرعاية الصحية المتقدمة، كان متوسط عمر الإنسان في تلك البيئة أطول من البيئات الأخرى.

إنّ متوسط أعمار الناس في اليابان يُعَدّ الأطول في العالم، بالنظر إلى توفرهم على رعاية صحية نموذجية، فقد بلغ متوسط العمر في اليابان (١ , ٨٢) سنة. بينما جاء أدنى متوسط للأعمار في جمهورية انغولا الأفريقية، بلغ ٣٨ سنة فقط، أي أقلّ من نصف متوسط عمر الفرد الياباني، وهكذا يتفاوت متوسط العمر من بلدٍ لآخر، تبعًا لمستوى الرعاية الصحية المتوفرة، فمتوسط العمر في الولايات المتحدة يفوق ٧٨ سنة بقليل، ونيجيريا ٤٦ سنة، و٦٦ سنة في روسيا. وذكرت منظمة الصحة العالمية أنّ متوسط عمر الرجال في السعودية ٧٤سنة، فيما بلغ متوسط عمر النساء ٧٧ سنة. وهكذا لا يزال البشر في سعيٍ دؤوب لإطالة أعمارهم في هذه الحياة.

هل يطول العمر مئات السنين؟

من الواضح أنّ هناك إمكانية نظرية لأن ينجح البشر في إطالة معدّل أعمارهم إلى أكثر مما هم عليه الآن، وعلى نحوٍ يمكن أن يبلغ مئات السنين. وقد كتب أحد الباحثين من القطيف، الأستاذ حسن

الخاطر، كتابًا جميلًا تحت عنوان «الخلود البيلوجي»، تناول فيه الطموح البشري للخلود في هذه الحياة. وهناك في الوقت الحاضر بعض الحالات الفردية لبشر بلغت أعمارهم سنين متقدمة، حتى إنّ أكبر معمّر موجود في الهند، بلغ عمره ١٧٩ سنة، وهو مولود في مدينة بنغلور سنة ١٨٣٥، ويُعَدّ الآن أكبر معمّر مسجل في موسوعة غينيس للأرقام القياسية، وقد توفي جميع أبنائه وأحفاده، وهو ما يزال على قيد الحياة، وينقل عنه أنه لم يتقاعد عن العمل إلّا بعد أن بلغ ١٢٢ سنة[١]. وإن كانت هذه حالة فردية، إلّا أنّ العلماء ما يزالون في دأبٍ للوصول إلى إطالة أعمار البشر على نحوٍ يبلغون فيه المئات أو ربما الآلاف من السنين. ومع أنّ النهاية المحتومة للبشر هي الموت، كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، إلّا أنّ الإنسان لا يريد أن يذوق طعم الموت، وإنما يبحث عن البقاء والخلود.

أين تتحقق رغبة الخلود؟

إنّ الله سبحانه وتعالى، ولسابق علمه برغبة الإنسان في البقاء والخلود، تعهّد سبحانه بأن يُحقّق له هذه الرغبة في عالم الآخرة. وهذا ما تؤكّده النصوص الدينية، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما خلقتم للفناء بل خلقتم للبقاء، وإنما تنقلون من دار إلى دار»[٢]، وبذلك، فالرغبة في الخلود لم تأتِ من فراغ، وليست شكلًا من

(١) حسن الخاطر. الخلود البيلوجي، الطبعة الأولى ١٤٣٥هـ، (القطيف: أطياف للنشر والتوزيع)، ص٤٣.
(٢) الشيخ الصدوق. الاعتقاد، باب (١٥)، ص٤٧.

أشكال البحث عن السراب، وإنّما هي رغبة في طور التحقق، غاية ما هناك، أنّها ستأخذ مكانها للتحقق في دار أخرى، وعلى الإنسان أن يعمل لتلك الدار الأخرى، لأنّ بقاءه في الدنيا يظلّ محدودًا مؤقتًا، غير أنّ مشكلة الإنسان هي إيثاره للحياة الدنيا، وفقًا للتوصيف القرآني، في قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

لقد جعل سبحانه الخلود والبقاء في الحياة الآخرة، وما على الإنسان إلّا السعي بهذا الاتجاه. من أجل نيل الخلود في نعيم الآخرة، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «عجبت لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء»[١]، وقال عليه السلام: «إِنَّكُمْ إِنَّما خُلِقْتُمْ لِلفَناءِ وَالتَّزَوُّدِ لِلآْخِرَةِ لا لِلْدُنيا وَالْبَقاءِ»[٢]، كما ورد عنه عليه السلام أنه قال: «ينبغي لمن أيقن ببقاء الآخرة ودوامها أن يعمل لها»[٣]. فما دام البقاء والخلود متحقّقًا في الدار الآخرة، فإنّ على المرء أن يعمل لتلك الدار، ولا يعني ذلك أن يهمل الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، وذلك ما يشبه امتلاك الفرد رأس مال معيّن، وأمامه مهّمتان، مهمة أكثر أهمية وربحية من جميع النواحي، ومهمّة أخرى أقلّ أهمية، فإنّ من الطبيعي أن يخصص القسط الأكبر من رصيده لصالح المهمة الأكثر ربحية، دون أن يهمل الأخرى تمامًا.

من هنا، ينبغي للإنسان أن يصرف من وقته وجهده وماله واهتمامه

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٢٦١، حكمة٢.
(٢) عيون الحكم والمواعظ. ص١٧٤.
(٣) المصدر نفسه. ص٥٥٥.

لشؤونه في هذه الحياة الدنيا، لكن عليه في الوقت عينه أن يوفّر معظم رصيده ووقته وجهده لتلك الدار الآخرة، علمًا بأنّ ذلك لا يتنافى مع تمتع الإنسان في الحياة الدنيا. ذلك أنّ من يعمل للآخرة ليس مطلوبًا منه أن يجوع أو يعرى ويعاني في الدنيا، وإنّما يريد الله تعالى من الإنسان أن يتمتع بحياته الدنيا على أحسن وجه، على نحوٍ يأخذ مستقبله الأخروي في عين الاعتبار.

مواجهة الأخطار المستقبلية

الدفاع عن النفس ورد المخاطر عنها طبيعة متأصلة في الإنسان، بوصفه كائنًا حيًّا له شعور بذاته، وإحساس بمن حوله، وما يجعل الإنسان متميزًا عن الحيوان الذي يمتلك نفس هذه الغريزة، هو قدرة الإنسان على التعقل والتفكر، التي تمكنه من معرفة المخاطر الآنية والمستقبلية الظاهرة منها والباطنة، ومن ثم التعرف على الوسائل المناسبة لتفادي كلّ هذه الأخطار، وما شهدته البشرية من تقدم علمي كبير في الكشف عن مخاطر الأمراض أو مخاطر الطبيعة (عواصف وأعاصير وزلازل وغيرها) وما وضعته من حلول وعلاجات يشهد بالقدرة العلمية للإنسان، في حين أنّ الحيوانات تصاب نفسها المخاطر من الأزل، وتقع فريسة في نفس الشراك، ولم تتعظ بالتجارب ولم تفكر في تجنبها لعدم قابليتها لذلك.

فالإنسان كفرد أو أمة ينفعل بما يحيط به من تحدّيات ومخاطر، وقد تمكّن من تراكم التجارب واكتساب الخبرات، واختلاف الأمم والأفراد في مواجهة المخاطر المستقبلية يرجع بشكل مباشر

إلى الحصيلة المعرفية والثقافية، فالبعد الاستراتيجي لأيّ أمة هو البعد التاريخي الذي يمثل عمقها الحضاري والثقافي، مضافًا للبعد المستقبلي الذي يمثل تطلعاتها وطموحاتها، فلا يستطيع الإنسان التخلي عن كلا البعدين، الهوية الحضارية وخبرات الماضين، ومن ثم التغيير والأمل نحو المستقبل الأفضل. وإذا حاولنا أن نكتشف بعض أسباب ما تعانيه منطقتنا من تراجع، نجد في مقدمتها عدم الاهتمام بالمستقبل وترك الاستعداد لمواجهة الأخطار المتوقع حدوثها.

لماذا لا يأخذ الإنسان الأخطار المستقبلية بجدية؟

إنّ الإنسان إذا واجه خطرًا فوريًّا آنيًّا فإنه يستجيب له بشكل سريع، ويأخذ احتياطه لتلافيه، لكن حينما يعلم أن هناك خطرًا يأتيه في المستقبل نجده يتوانى مع علمه بحدوث الخطر، وذلك لعدة أسباب:

السبب الأول: الغفلة بأن يكون الإنسان غير ملتفت للخطر الذي يمكن أن يقع مستقبلًا، فيتصرف على أساس عدم وجوده، أو قد يكون غير متيقن من حصوله، فيرفض كلّ الأدلة، ويتنكر لكلّ المؤشرات خوفًا على مصالحه الآنية، لذلك نجد القرآن عندما يتحدث عن الآخرة يقول: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ حينما يكون يقين الإنسان قويًّا بالخطر المقبل عليه فإنّ ذلك يدفعه للاستعداد له.

السبب الثاني: سيطرة الرغبات والشهوات الآنية، وما تخلقه

من ضغط على الإنسان تجعله سريع الاستسلام لها، فلا يتعدى نظره حدود المصلحة الآنية، هذا بخلاف من يمتلك إرادة وعزيمة ووعيًا بمصيره المستقبلي، فلا يقدِّم مصلحته الآنية على مصلحة كبرى مستقبلية، مع أن بعض الناس عندما يقدم على إشباع رغباته الآنية يكون على علم بما تسببه من أضرار مستقبلية، لكنه يجد نفسه مدفوعًا للاستجابة لهذه الرغبة الآنية، ويتجاهل الخطر المستقبلي، وهذا ما يتحدث عنه القرآن بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ* وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ عادة ما ينشد الإنسان للرغبات العاجلة حتى في الأمور الدونية التافهة، ونمثل لذلك بالوعي الصحي الذي أصبح متاحًا للجميع، وبخاصة ما يمكن أن يسببه نوع الغذاء من مخاطر على صحة الإنسان، من أمراض متعددة، فلا يوجد إنسان لم يسمع بمرض السكري مثلًا، وما يسببه من مخاطر، وبرغم علم الجميع بأسبابه إلّا أننا نجدهم يضعفون أمام الموائد ذات الألوان والأشكال المختلفة، فغالب الناس تسيطر عليهم الرغبة الآنية مع هذه التحذيرات التي تصرح بها المنظمات الصحية على مستوى العالم، ففي العالم اليوم أكثر من ٣٦٦ مليون إنسان مصاب بالسكري،

أما على مستوى بلادنا فإنّ نسبة المصابين بالسكري ٢٨٪ يعني بين كل ثلاثة أشخاص هناك شخص مصاب بالسكري، كما يعتبر ثاني أسباب الوفاة في المملكة بعد الحوادث، وهناك أكثر من ٦٠٠٠ حالة بتر للقدم سنويًّا في المملكة بسبب السكري، نسمع هذا ونعلم به ولكن الرغبات الآنية غالبًا ما تسيطر على الإنسان وتجعله يتجاهل الأخطار المستقبلية.

السبب الثالث: الأجواء التي يعيش ضمنها الإنسان، فتأثره بالمحيط الذي يحتك به أمر بديهي، وذلك بسبب غريزة التوافق الاجتماعي المتأصلة في كلّ فرد، فلا يستطيع الإنسان أن يعيش منفردًا بعيدًا عن الآخرين، فوجوده بينهم يدفعه للتوافق معهم، ومن هنا أكد الإسلام على ضرورة نظافة البيئة الأخلاقية، واهتم بالمجتمعات الصالحة؛ لأنها توفر الأرضية لنمو الأفراد بشكل إيجابي، فإذا عاش الإنسان في أجواء مهتمة بالأمور المستقبلية، فإنه حتمًا يتأثر بها، أما إذا عاش في أجواء لاهية، تهتم بالرغبات الآنية، فسوف يتأثر هو الآخر ويفكر على طريقتهم.

المستقبل الأهم والخطر الأكبر

المستقبل الأعظم والخطر الأكبر الذي يواجه الإنسان هو مستقبله في الدار الآخرة، وكلنا نعلم أننا سنغادر هذه الدنيا إلى دار الخلود، كما نعلم أنّ هناك أخطارًا في تلك الدار من نار وعذاب وحرمان، من هنا نجد اهتمام الأدعية الشريفة بتذكير الإنسان وتنبيهه بذلك المصير المحتوم، وتصوره له كأنه واقع ملموس حتى يستغيث من هول النار «الغوث، الغوث، خلّصنا من النار يا ربّ» ومع ذلك كثير من الناس لا يلتفت إلى هذا الخطر، وفي لحظة الحقيقة ويوم الحساب يدرك الإنسان الفرصة التي أضاعها، في دار الدنيا، قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ لماذا تساهلت وضيعت الفرص ولم أتعامل بشكل جدي ﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ ويكتشف الإنسان أنه بعدم جديته قد ظلم نفسه كثيرًا، فيحاول أن يجد لنفسه مبررًا ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ يتمنى أن الله لو أجبره على الهداية ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ علينا أن نستفيد من المواعظ والعبر، حتى نكون أكثر جدية أمام الأخطار المستقبلية، وهي ليست بعيدة، يقول الإمام علي عليه السلام: «وَمَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ إِلَّا الْمَوْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ»[1]، لذلك علينا أن نستفيد مما تبقى من أعمارنا بالعمل الصالح، وأن نستثمر الأيام المتبقية من حياتنا، ونعمل جاهدين على

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٦٢، ومن خطبة له عليه السلام في المبادرة إلى صالح الأعمال.

أن يفك الله رقابنا من النار، وأن يخلّصنا من تلك الأخطار العظيمة في الآخرة، يقول الإمام علي عليه السلام وهو يوجّهنا إلى الجدّ في التعامل مع مسألة الآخرة:

«فَإِنَّهُ وَاللَّـهِ الْجِدُّ لَا اللَّعِبُ وَالْحَقُّ لَا الْكَذِبُ وَمَا هُوَ إِلَّا الْمَوْتُ أَسْمَعَ دَاعِيهِ وَأَعْجَلَ حَادِيهِ فَلَا يَغُرَّنَّكَ سَوَادُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ وَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ وَحَذِرَ الْإِقْلَالَ وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ طُولَ أَمَلٍ وَاسْتِبْعَادَ أَجَلٍ كَيْفَ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَأَزْعَجَهُ عَنْ وَطَنِهِ وَأَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ مَحْمُولًا عَلَى أَعْوَادِ الْمَنَايَا يَتَعَاطَى بِهِ الرِّجَالُ الرِّجَالَ حَمْلًا عَلَى الْمَنَاكِبِ وَإِمْسَاكًا بِالْأَنَامِلِ أَمَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَأْمُلُونَ بَعِيدًا وَيَبْنُونَ مَشِيدًا وَيَجْمَعُونَ كَثِيرًا كَيْفَ أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُورًا وَمَا جَمَعُوا بُورًا وَصَارَتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ وَأَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَا فِي حَسَنَةٍ يَزِيدُونَ وَلَا مِنْ سَيِّئَةٍ يَسْتَعْتِبُونَ فَمَنْ أَشْعَرَ التَّقْوَى قَلْبَهُ بَرَّزَ مَهَلُهُ وَفَازَ عَمَلُهُ فَاهْتَبِلُوا هَبَلَهَا وَاعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا فَإِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مُقَامٍ بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازًا لِتَزَوَّدُوا مِنْهَا الْأَعْمَالَ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ»[1].

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٣٢، يعظ فيها ويزهد في الدنيا.

هل فكرت في مستقبلك الأخروي؟

قبل مجيء الإنسان إلى عالم الدنيا يمرّ بعالم الأرحام، حيث يعيش جنينًا في بطن أمه. وفي ذلك العالم يتحدد وصفه وشكله، ومعالمه الجسمية، وتنتقل إليه بعض السّمات عن طريق الجينات الوراثية كما قد تصيبه بعض تأثيرات الحال التي تكون عليها الأمّ في فترة الحمل.

ويخرج الإنسان إلى هذه الدنيا من عالم الأرحام متأثرًا بوضعه في ذلك العالم. فقد يكون في وضع سليم من الناحية النفسية والجسمية، وقد تلحق به بعض السّمات والتشوهات. وتشير التقارير والدراسات العلمية إلى أنّ هذه التشوهات تحصل بين كلّ ٣٣ ولادة، أي من بين كلّ ٣٣ مولودًا يخرج طفل فيه شيء من التشوّه، سواءً كان قليلًا أو كثيرًا. هذه التشوهات إما لأسباب وراثية، أو لما يطرأ على حال الأم أثناء الحمل، وقسم كبير منها لا يعلم أسبابها، كما يؤكّد ذلك العلماء حيث يقولون إنّ ٧٠٪ من التشوّهات لا تُعرف أسبابها.

هذه التشوّهات التي تصيب الإنسان حال كونه جنينًا قد تكتشف أثناء الحمل أو بعد الولادة، أو مع تقدم العمر. ومع تقدم العلم، أمكن

معالجة كثير من هذه التشوّهات، في مختلف مراحلها. وبطبيعة الحال فإنّ الإنسان في عالم الأرحام غير قادر على تجنب التشوّهات ولا يُدرك ذلك، فيأتي إلى هذا العالم ضمن وضعية ليست من اختياره.

حتى لا نصاب بالتشوّهات في العالم الآخر

من هنا نتساءل: هل العالم الثاني الذي ينتقل إليه الإنسان وهو عالم الدنيا هو العالم الأخير أم أنه ينتقل إلى عالم آخر بعده؟

وجدانًا نرى أنّ الإنسان يخرج من هذه الحياة، فهل خروجه هذا يعني العدم؟ هل تنتهي حياة هذا الكائن المدرك المختار بهذا الشكل كسائر الكائنات؟

هذا لا يمكن أن يقبله الوجدان، يقول تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾. إنّ هناك بلا شك عالمًا آخر.

ولنا أن نتساءل: كيف سيكون وضع الإنسان في العالم الآخر بعد الدنيا؟ هل سيكون سليمًا أم سيعاني من تشوّهات؟ وإذا حصلت له تشوّهات، فهل هي خارجة عن إرادته كما هو الحال في عالم الأرحام، أم أنها بإرادته؟

لا شك أنّ الوضع في العالم الآخر يُحدّده الإنسان في هذه الدنيا، وأنّ أيّ تشوّهات تكون له في الآخرة، فهي بسببه. بعض الناس يغفل عن هذا الأمر، يعيش في هذه الحياة وكأنه ليس هناك عالم آخر سينتقل إليه، وقد يمارس أعمالًا وتصرفات تسبب له تشوّهًا وإزعاجًا كبيرًا في العالم الآخر. وهنا يأتي دور الرسالات الإلهية التي توجّه الإنسان

وتمنحه دليلًا يهديه، أيّها الإنسان أنت مقبل على عالم آخر، وهناك بعض الأعمال تصنع لك تشوّهًا وشقاءً في عالمك القادم، فتجنبها. وهناك أمور توجب لك السعادة في عالمك القادم، فاحرص عليها، لكن المشكلة أنّ كثيرًا من الناس ينشغلون بأوضاعهم في هذا العالم ويغفلون عن العالم الآخر، يقول تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾، يستبدلون الراحة المحدودة في هذه الدنيا بالراحة الدائمة في العالم الآخر.

ولتقريب الفكرة نضرب مثلًا بشخص تُعرضُ عليه في المطار تذكرتان: الأولى توفر له راحة ساعة في المطار، في مكان مهيأ بأسباب الراحة، لكنها توصله إلى مكان خطير على حياته. والأخرى تكلفه عناءً في بقائه في المطار مؤقتًا لكنها توصله إلى منتجع يجد فيه كلّ ألوان الراحة والمتعة لعدة أيام أو أسابيع.

لا شك أنّ العاقل يختار التذكرة الثانية، فما قيمة راحة ساعة تنتهي بشقاء أيام، مقابل عناء ساعات تنتهي براحة أيام وأسابيع! الدنيا تمامًا مثل هذا المطار، فيه أناس يذهبون وآخرون يجيئون، فهي ليست مكان قرار. إنما القرار في العالم الآخر يقول تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾.

كيف نضمن الراحة في الآخرة؟

على الإنسان أن يفكر في راحته في الآخرة. الآية الكريمة تقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّـهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّـهَ

﴿إِنَّ اللَّـهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[سورة الحشر، الآية: ١٨] يعني ما قدمت للعالم الآخر. بعض الناس يتصوّر أن بينه وبين الغد زمنًا طويلًا، وهذا اشتباه كبير، فالآخرة التي هي الغد ليست بعيدة عن الإنسان، يقول تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً* وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾.

وجدانًا يرى الإنسان من عاشوا معه في هذه الحياة وغادروها، هل كان كل واحد منهم يتوقع أنه سيغادرها بهذه السرعة؟ أكثر الناس يعيشون آملين أن تطول حياتهم، لكن الموت يفاجئهم فينقلهم إلى الغد.

على الإنسان أن يفكر في هذا الأمر، ولنصغ بتأمّل لقول أمير المؤمنين عليه السلام: «فَسَابِقُوا رَحِمَكُمُ اللَّـهُ إِلَى مَنَازِلِكُمُ الَّتِي أُمِرْتُمْ أَنْ تَعْمُرُوهَا وَالَّتِي رَغِبْتُمْ فِيهَا وَدُعِيتُمْ إِلَيْهَا ... فَإِنَّ غَداً مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِي الْيَوْمِ وَأَسْرَعَ الْأَيَّامَ فِي الشَّهْرِ وَأَسْرَعَ الشُّهُورَ فِي السَّنَةِ وَأَسْرَعَ السِّنِينَ فِي الْعُمُرِ»(١).

يعمل الإنسان ويجتهد لبناء بيت في هذه الدنيا، ولكن ماذا عن بيت الآخرة؟ كم سيعيش في الدنيا، وكم سيعيش في الآخرة؟ وإذا كانت الحياة الآخرة هي الأطول والأبقى، فأيّ الحياتين أولى بالإعمار؟ في كلمة لأمير المؤمنين يقول عليه السلام: «مَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ إِلَّا الْمَوْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ»(٢). الآخرة تحتاج تهيئة سكن، ومأكل، ومشرب،

(١) نهج البلاغة. خطبة ١٨٨.
(٢) المصدر نفسه. خطبة ٦٤.

وراحة نفسية واطمئنان، وهذا لا يأتي إلا بالعمل الصالح، يقول تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾. بنك مضمون الأرباح، يحتاج ثقة عالية بالله عزّ وجلّ للاستثمار فيه.

ذكر الآخرة حافز نشاط ومقوّم سلوك

تركّز الرسالات السماوية على تذكير الإنسان بالعالم الآخر الذي ينتظره، بعد مغادرته هذه الدنيا. فالإنسان يعلم وجدانًا، أنه لا محالة مغادر هذه الحياة. وفي حين يرى المادّيون أنّ منتهى مصير الإنسان هو ما يقضيه في هذه الحياة، ولا شيء آخر يعقب الحياة الدنيا، يرى المؤمنون بالرسالات السماوية، أنّ الحياة الدنيا لا تعدو عن قنطرة وممر لعالم آخر، يرجعون إليه بعد هذه الحياة، وهو عالم الآخرة.

وتؤكّد الرسالات السّماوية على الإنسان، أن يتذكر العالم الآخر دائمًا وأبدًا، وأن يجعله نصب عينيه، بغرض التحفيز على التفكر في الحياة الدنيا والآخرة على حدٍّ سواء، وحتى يكون الإنسان المؤمن أكثر اجتهادًا وحركة ونشاطًا من غيره، لا أن يكون غير مبالٍ بالحياة الدنيا، إذْ لا يعني الاهتمام بالآخرة نسيان الدنيا بأيِّ حال، فذلك خلاف مضمون الرسالات السّماوية، حيث لا تدفع الإنسان المؤمن للتخلّي عن الاهتمام بالحياة الدنيا والنأي عن الاستمتاع بطيباتها.

الاهتمام بحياتين

إنّ تفكير غير المؤمن محصور في الحياة الدنيا، فيما يفكّر المؤمن

في الحياتين، الدنيا والآخرة، ويهتمّ بهما، وذلك على غرار الشخص العامل على وظيفتين، فهو أكثر تحفّزًا، بالنظر لتضاعف عمله وتشعّب اهتماماته، بخلاف من يصبّ جهده في وظيفة واحدة، ليفرغ منها ويركن للراحة سريعًا.

إنّ من المفترض بالإنسان المؤمن أن يكون أكثر نشاطًا وحيوية واهتمامًا بالحياة الدنيا والآخرة. وهذا ما تؤكّده النصوص الدينية، حيث ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أعظم الناس همًّا المؤمن، الذي يهتم بأمر دنياه، وأمر آخرته»[١]، فاهتمامات الإنسان المؤمن هي أكثر سعة من غير المؤمن، لكونه يفتح أفقه على عالمين مختلفين؛ الدنيا والآخرة. كما ورد عنه ﷺ أنه قال: «خيركم من لم يترك آخرته لدنياه، ولم يكن كلًّا على الناس»[٢]، فاهتمام المؤمن بأمر الآخرة، لا يعني أن يصبح عبئًا على الآخرين في الدنيا، وإنّما المفترض أن يحمل أعباء دنياه وآخرته على حدٍّ سواء.

ويشير أمير المؤمنين عليه السلام إلى فرق جوهري بين المؤمن وغير المؤمن تجاه أمر الحياة الدنيا والآخرة. حيث يقول: «وَإِنَّمَا الدُّنْيَا مُنْتَهَى بَصَرِ الْأَعْمَى لَا يُبْصِرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَيْئاً وَالْبَصِيرُ يَنْفُذُهَا بَصَرُهُ وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ وَرَاءَهَا فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شَاخِصٌ وَالْأَعْمَى إِلَيْهَا شَاخِصٌ وَالْبَصِيرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ وَالْأَعْمَى لَهَا مُتَزَوِّدٌ»[٣]، إنّ غير المؤمن لا يرى

(١) كنز العمال. ج١، ص١٤٤، حديث٧٠٢.
(٢) المصدر نفسه. ج٣، ص٢٣٨، حديث ٦٣٣٦.
(٣) نهج البلاغة. خطبة ١٣٣.

شيئًا خارج محسوسات هذه الدنيا، فهي منتهى بصره، بخلاف المؤمن الذي يرى الدنيا، وينظر من خلالها إلى ما بعدها، فيما لا يرى الأعمى ـ وَفْقَ وصف الإمام ـ إلّا هذه الحياة وحسب، فهو شاخص إليها وحدها. والبصير يتعامل مع الدنيا كمحطة تزود بما ينفعه في العالم الآخر، أمّا غير البصير فلا هَمَّ عنده سوى هذه الدنيا، وكلّ همه تزوّده لها وحدها.

وبذلك، فإنّ تذكر الآخرة محفّزٌ أكبر للإنسان من أجل زيادة نشاطه وحركته في الحياة الدنيا. جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «من كانت الآخرة أكبر همّه، كشف الله عنه ضيقه، وجمع له أمره، وأتته الدنيا وهي راغمة»[1]، فمع وجود الاهتمام الأكبر بأمر الآخرة، لا يعود الإنسان معرّضًا لحالات التأزّم والضيق في هذه الدنيا؛ لأنّ عنده أفقًا آخر أكبر يفكّر فيه، ولأنه مليء بالتطلّع إلى دار أخرى، فلا يصاب بالكآبة مهما اعترضته المشاكل والعقبات والصعوبات في الحياة الدنيا.

من أجل التزام أفضل بالقيم

وهناك مغزى آخر لتذكر عالم الآخرة، وهو الدفع بالإنسان نحو الالتزام بالقيم. والتشبّث بعمل الخير، والارتداع عن ارتكاب الشرور، فلو تذكر الإنسان أمر الآخرة والحساب في كلّ حين، وخاصة عندما يهم بالإساءة إلى غيره، فإنّ تلك الذكرى سيكون لها الأثر في ردعه عن

(١) بحار الأنوار. ج٧٠، ص١٢٦، حديث ١٢٢.

ركوب المعصية، واقتراف الخطأ. يروى أنّ الإمام زين العابدين عليه السلام أبطأت به دابّته، فرفع السّوط حتى يضربها، وقال: «آه لولا القصاص»، ورد يده عنها[١]، فهذا الإمام يتذكر أمر الحساب والآخرة، وهو بصدد التعامل مع حيوان، فكيف بمن يتعاملون مع بشر مثلهم.

إنّ تذكّر الإنسان لأمر الآخرة، يأتي بمنزلة الكابح عن الوقوع في الخطايا. سواء كان ذلك في قول خطأ أم فعل منكر، وإلّا فما قيمة ذكر الآخرة، ما لم يردع عن المنكرات. إنّ تذكر المؤمن لأمر الآخرة، يعني تذكره المسؤولية والحساب على أعماله وتصرّفاته. من هنا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «مَنْ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ اَلْآخِرَةِ قَلَّتْ مَعْصِيَتُهُ»[٢]، وتفسير قلّة المعصية، أنّ المؤمن حين يتذكّر الآخرة، فإنه بذلك يتذكّر أمر الحساب والعقاب والموقف العسير بين يدي الله سبحانه وتعالى، ليكون ذلك دافعًا له للتراجع عن ارتكاب الذنوب. من هنا ينبغي أن يضع المؤمنون الآخرة نصب أعينهم، بخلاف أمر الدنيا التي لا حاجة لتذكرها واستحضارها، فهي تفرض نفسها على البشر بمختلف حاجاتها ومتطلباتها. إنّ الإنسان المؤمن في أمسّ الحاجة لتذكر الآخرة باستمرار، حتى يرعوي عن الاسترسال في الأخطاء، واقتراف المعاصي والذنوب.

---

(١) بحار الأنوار. ج٦١، ص٢٠١٦.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٣٣٣، حكمة ٣٢٨.

العمل الصالح ثروة الآخرة

يهتم الناس بتوفير مقومات حياتهم في الدنيا، فيما يغفل أكثرهم عن الاهتمام بأمر حياتهم الأبدية في الآخرة. وفي حين يعتمد أغلب الناس على عنصر المال، الذي يلعب دورًا حيويًّا في تسهيل أمورهم، يبقى أمر الآخرة شيئًا آخر مختلفًا تمامًا، إذ إن مكانة المرء ووجاهته هناك بمقدار ما يملك من رصيدٍ كافٍ من أعمال الخير والصلاح.

إن الانتقال من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة أمر حتمي في رحلة قسرية، تستحق الاستعداد لها جيدًا. والسؤال هنا؛ كيف سيبني المرء مكانته ووجاهته حين ينتقل إلى الدار الآخرة؟ وكيف يسير أمور حياته ويعالج مشاكله هناك؟ هل بنفس العملة المالية التي يتداولها في هذه الحياة الدنيا؟

الجواب؛ كلّا. فالإنسان إنما يحتاج في ذلك العالم إلى عملة أخرى من نوع مختلف، اختصرها الإمام الهادي عليه السلام في كلمة واحدة حين قال: «اَلنَّاسُ فِي اَلدُّنْيَا بِالْأَمْوَالِ وَفِي اَلْآخِرَةِ بِالْأَعْمَالِ»[1]. إذ مما

---

(١) بحار الأنوار. ج ٧٥، ص ٣٦٩.

لا شك فيه أنّ مكانة الإنسان في الآخرة، وهي الحياة الخالدة، تتطلب نوعًا من العملات يسير به حياته ويعالج بها مشاكله، لكن ذلك لن يكون عبر الثروة المالية التي امتلكها وألفها في هذه الحياة الدنيا، فهذه لن تجدي، بل لا وجود لها من حيث الأصل، وإنما العملة المتداولة هناك هي (الأعمال).

الرصيد في الآخرة

إنّ رصيد كلّ امرئٍ في عالم الآخرة هو مجموع أعمال الخير والصلاح التي قام بها في الدنيا. فبمقدار ما يكون للإنسان رصيد من أعمال الخير والصلاح تكون مكانته ووجاهته في الآخرة، وتسير أمور حياته وتحلّ مشاكله هناك. لذا على الإنسان أن يفكر في هذا الأمر بجدٍّ، أي أن يدّخر له رصيدًا كافيًا يعينه في تلك الحياة.

إنّ النصوص الدينية توجّه المؤمنين إلى أنهم كما يحتاجون إلى توفير السكن في حياتهم الدنيا عبر شراء الأرض ثم البناء وكلّ ذلك بالمال، كذلك الأمر تمامًا بالنسبة للآخرة، فالإنسان سيكون في أمسّ الحاجة حينئذٍ لكلّ عمل من أعمال الخير، حتى يجوز به أهوال القيامة، التي ليس أقلها الجواز على الصراط الذي تضطرم على ضفتيه نار جهنم، وسط مخاطر التعثر والسقوط، وفي السير على الصراط هناك من يجتاز كالبرق، تمامًا كمثل الذي يركب طائرة في هذه الدنيا، وآخر يركض، وثالث يمشي، وغيره بالكاد يزحف، وكل ذلك يعتمد على ما يملك من الأعمال.

من سبل النجاة

تزخر النصوص الدينية بذكر الكثير من الأعمال الصالحة التي تشكّل رصيدًا وسبيلًا لنجاة المرء في حياته الأبدية يوم يقوم الناس لربّ العالمين.

يروي أبو حمزة الثمالي عن الإمام الباقر عليه السلام: «أربع من كن فيه بنى الله له بيتًا في الجنة؛ من آوى اليتيم ورحم الضعيف وأشفق على والديه ورفق بمملوكه»[1]. هذه هي العملة التي تمكن الإنسان من الحصول على بيت في الجنة، فالمرء الذي يريد بيتًا في الدنيا ويكدح من أجل ذلك، وخاصة إذا كان يعيش في بلد كبلدنا فإنّ امتلاك منزل يبقى قضية صعبة، ويحتاج إلى جهد مضاعف، مقارنة بالكثير من بلاد العالم، فأسعار الأراضي بلغت حدًّا خياليًا غير متصور، لذلك تجد أكثر المواطنين لا يمتلكون سكنًا في مختلف مناطق البلاد، وحسب التقارير الرسمية فإنّ نسبة كبيرة من مواطني المملكة لا يمتلكون سكنًا.

إذًا أنت تدرك صعوبة الحصول على بيت في الدنيا، فلا تدفع نفسك لمواجهة تلك الصعوبة في الآخرة، فبإمكانك من الآن أن ترتب أمورك هناك. إنّ إيواء اليتيم والرحمة بالضعيف والإشفاق على الوالدين والرفق بالمستخدمين تُعدّ جميعها عملة صالحة، تمكن المرء من الحصول على بيت في الجنة.

وعلى غرار ذلك يحتاج الإنسان كذلك إلى الطعام الذي يشتريه

---

(١) وسائل الشيعة. ج ١٦، ص ٣٣٨.

بالمال، لكن في الآخرة لن يتسنى لأحدٍ الحصول على الطعام سوى بالعمل الصالح. فقد روي عن الإمام زين العابدين عليه السلام القول: «من أطعم مؤمنًا من جوع أطعمه الله من ثمار الجنة، ومن سقى مؤمنًا من ظمأٍ سقاه الله من الرحيق المختوم ومن كسا مؤمنًا كساه الله من الثياب الخضر»[١].

ويندرج هذا الأمر على جميع البشر، بل جميع الخلائق، فكما ورد أنه سُئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن الضالة ـ أي الحيوان الذي لا صاحب له يطعمه ويسقيه ـ ترد الحوض، هل له أجر إن أشبعها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «في كلّ كبدٍ حر أجر»[٢].

وفي مثل مناطقنا شديدة الحرارة في أيام الصيف، فإنك ترى بعض العمال الأجانب يلهثون من شدة العطش، فأجدر بنا أن نبادر إلى سقيهم، وأذكر أني تحدثت لربِّ عمل بأن يسقي العمال الذين يشتغلون عنده الماء، فرد بالقول: البقالات موجودة ولهم أن يشتروا منها. مثل هذا الشخص يضيع على نفسه الخير الكثير الذي سيكون أحوج ما يكون إليه يوم القيامة. وفي رواية عن الإمام الباقر عليه السلام: «أَوَّلُ مَا يُبْدَأُ بِهِ فِي اَلْآخِرَةِ صَدَقَةُ اَلْمَاءِ»[٣]، فهذا أول شيء يوزع ثوابه.

هناك روايات كثيرة حول ترتيب أوضاع الإنسان المعيشية في الآخرة، ومنها ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله أنّ: «أرض القيامة نار ما خلا ظلّ

(١) بحار الأنوار. ج٧١، ص٣٨٤، حديث٩٨.
(٢) المستدرك على الصحيحين. ج ٣، ص ٦١٩.
(٣) الكافي. ج ٤، ص ٥٧.

المؤمن فإنّ صدقته تظله»[١].

وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «من زوّج أخاه المؤمن امرأة يأنس بها وتشدّ عضده ويستريح إليها زوّجه الله من الحور العين»[٢]. فعلى غرار حاجة المرء للزواج في الحياة الدنيا، يحتاج الأمر ذاته في الحياة الآخرة، غير أن الفرق أن زواج الدنيا يحتاج إلى المال، سيما في هذا العصر الباهظ التكاليف، بيد أنّ الأمر مختلف في الآخرة، فالزواج هناك ليس بالمال وإنما بالأعمال، كما بإمكان المرء أيضًا أن يختار هناك من بين الحور العين كما ورد عنه ﷺ «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالى عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ»[٣].

وهكذا تتعدد الروايات والنصوص التي ترشدنا إلى الطريق الذي نسلكه لتهيئة أوضاعنا في الحياة الآخرة. من هنا، لنجعل هذه الكلمة هديتنا من الإمام الهادي عليه السلام: «اَلنَّاسُ فِي اَلدُّنْيَا بِالْأَمْوَالِ وَفِي اَلْآخِرَةِ بِالْأَعْمَالِ».

(١) الكافي. ج ٤، ص ٣.
(٢) وسائل الشيعة. ج ١٧، ص ٢١٠.
(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل. ج ٣، ص ٤٤٠.

لا مجال للتنصل أمام الله

يقتضي تحقيق العدالة أن تتاح للمتهم فرصة الدفاع عن نفسه، إذا اتّهم باقتراف خطأ، أو ارتكاب جرم. فلا تتقرر العقوبة إلّا بعد ثبوت ارتكاب الجرم قطعيًّا، ذلك أنّ الأصل القانوني يقول: إنّ المتهم بريء حتى تثبت إدانته، ليحفظ بذلك حقّه في فرصة الدفاع عن النفس، وإنكار التهمة الموجهة إليه، بحضور محامٍ مختصّ، يتولى الدفاع عنه، ويكشف الثغرات القانونية في القضية محلّ النظر، ولو لم يكن بمقدور المتهم توكيل محامٍ يدافع عنه، فإنّ من مسؤولية المحكمة توفير محامٍ يدافع عنه على نفقة الدولة، كلّ ذلك بغرض تحقيق أركان المحاكمة العادلة.

محكمة العدل الإلهي

فإذا كان الحال بين البشر على هذا النحو، فكيف سيكون الحال في يوم القيامة، حيث تتجسّد هناك أعلى درجات تحقيق العدالة، إذ مع كلّ ما يحيط بيوم المحشر من أهوال تشيب منها الولدان، إلّا أنّ الله سبحانه وتعالى يتيح للإنسان فرصة الدفاع عن نفسه، ومحاولة تبرئتها،

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾، ولا يمكن أن يحكم الله تعالى بالعقوبة على الإنسان إلّا إذا ثبتت عليه التهمة، واستنفد كلّ الحجج والمبررات، حتى لم يعد أمامه مجال للإنكار، فيجد نفسه مقرًّا معترفًا بجرمه، وهذا هو منتهى تحقيق العدالة.

إنّ من الطبيعي في يوم القيامة أن يجهد المرء في الدفاع عن نفسه والتنصّل من أفعاله. خاصة وهو يرى أهوال يوم المحشر ماثلة أمام ناظريه، ويعاين نار جهنم ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾، فيحاول عندها بكلّ طريقة وبأيّ وسيلة أن يتنصل مما اقترف من أفعال ويتبرأ منها، حتى يصل به الأمر إلى أن يحلف بالله بأنه لم يرتكب ذلك الجرم، ولم يقترف تلك السيئة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّـهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾، فكما يبالغ الإنسان في الحلف للناس في الحياة الدنيا، رغبة في دفع التهمة عن نفسه، كذلك يفعل أمام خالقه في يوم المحشر.

غير أنّه في مقابل ذلك الحلف المبالغ فيه، تتوفر كثير من الأدلة القاطعة، والبراهين الدامغة، والجهات المتعددة التي تشهد على الإنسان، فتلزمه الحجة وتفقده أيّ قدرة على التنصّل والهروب من تبعات جرمه.

شهادات لا تقبل الرّد

وأول شاهد يشهد على الإنسان هو الله سبحانه وتعالى، القائل: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّـهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾، فالله سبحانه وتعالى

هو أول الشاهدين على أعمال العباد. وعلى اعتبار أنّ الإنسان كان أكثر شيءٍ جدلًا كما ورد في الآية الكريمة، فلربما جادل المرء ربه تعالى حينئذٍ، ولم يقبل شهادته كونه تعالى خصمًا له، ساعتئذ يأتي سبحانه بالملائكة ليشهدوا على الإنسان، قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، فالسّائق والشهيد ملكان يشهدان على الإنسان في يوم القيامة، وجاء عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ في بيان معنى الآية قوله: «سَائِقٌ يَسُوقُهَا إِلَى مَحْشَرِهَا وَ شَاهِدٌ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا»[1]، وقال تعالى في وصف هؤلاء الملائكة: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، فهم يكتبون كلّ أفعال الإنسان لاطّلاعهم عليها، وهم كالشاهد الثاني عليه بعد الله جلّ شأنه.

أما الشاهد الثالث الذي لا يملك الإنسان ردّ شهادته، فهو مكان اقتراف الذنب، وارتكاب الجريمة. فالأمكنة تشهد على الإنسان أنه ارتكب فيها ما ارتكب، وفعل فيها ما فعل، قال تعالى في شأن الأرض: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾، فأيّ فعلٍ فعله العبد في أيّ بقعة من بقاع الأرض، فإنّ تلك القطعة من الأرض، تأتي يوم القيامة لتشهد لصالح المرء أو عليه. وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَنَّ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ وَأَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا، أَنْ تَقُولَ: عَمِلَ كَذَا وَكَذَا، يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا»[2].

---

(١) نهج البلاغة. خطبة ٨٥.

(٢) محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى الترمذي. سنن الترمذي، ج٥، ص١١٧، حديث٣٤١١.

ثم تأتي بعد ذلك شهادة الزمان، فأيّ عمل يعمله العبد فهو في إطار زمن معيّن، هذا الزمن يأتي يوم القيامة شاهدًا على الإنسان، وقد ورد عن عليّ أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «مَا مِنْ يَوْم يَأْتِي عَلَى ابْنِ آدَمَ إِلَّا قَالَ لَهُ ذَلِكَ اليَوْمُ يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا يَوْمٌ جَدِيدٌ وأَنَا عَلَيْكَ شَهِيدٌ فَقُلْ فِيَّ خَيْراً واعْمَلْ فِيَّ خَيْراً أَشْهَدْ لَكَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَإِنَّكَ لَنْ تَرَانِي بَعْدَهَا أَبَداً»[1]، فكلّ ما سبق شهود على الإنسان في يوم الحساب.

أخطر الشهادات

وقد يمعن الإنسان يوم الحساب في إنكار أفعاله والتنصّل منها، فيأتيه الله تعالى بمزيد من الشهود الذين لا قِبَلَ له بردّهم. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[سورة فصلت، الآية:٢٠]، حيث ينطق الله تعالى أعضاء الإنسان فتشهد عليه، أذنه وعينه وجلده. وكما روي أنّ الآية الكريمة نزلت في قوم تعرض عليهم أعمالهم فينكرونها، فيقولون ما عملنا شيئًا منها، فتشهد عليهم الملائكة الذين كتبوا عليهم أعمالهم، قَالَ الصَّادِقُ عليه السلام: «فَيَقُولُونَ لِله: يَا رَبِّ، هَؤُلاَءِ مَلاَئِكَتُكَ يَشْهَدُونَ لَكَ، ثُمَّ يَحْلِفُونَ بِاللَّـهِ مَا فَعَلُوا مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً»[2]، فتشهد جوارحهم، فماذا عسى يقول المنكرون أفعالهم، وقد شهدت عليهم جوارحهم؟. أما عن الكيفية التي تشهد بها الجوارح، فهو ما سيكون على الأرجح من

(١) بحار الأنوار. ج٧، ص٣٢٥، حديث٢٠.
(٢) المصدر نفسه. ص٣١٢، حديث٤.

قبيل عرض مشاهد الأفعال نفسها، كما حصلت تمامًا، كما لو كانت على شاشة فيديو، فكما أنّ الناس باتوا قادرين على تصوير وتسجيل ما يفعلون اليوم، كذلك جميع أفعال البشر لا تزال مثبتة ومسجلة ضمن حيّز الوجود منذ الأزل، لولا عجز الناس عن سبل استعادتها، وذلك مدار العديد من البحوث العلمية اليوم، غير أنّ الله تعالى لا يعجزه شيء.

وإضافة إلى الآية المتقدمة هناك جملة من الآيات الكريمة التي تشير إلى شهادة أعضاء الجسم على الإنسان يوم القيامة. ومنها قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وجاء في آية أخرى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. من هنا جاء التصوير الرائع في دعاء عرفة المروي عن الإمام الحسين عليه السلام، تصويره للإنسان حين تحاصره الحقائق في يوم القيامة، فلا يعود يستطيع أن ينكر أو يتنصّل من أفعاله قيد أنملة، حيث يقول الدعاء: «فَهَا أَنَا ذَا يَا إِلَهِي بَيْنَ يَدَيْكَ يَا سَيِّدِي خَاضِعٌ ذَلِيلٌ حَصِيرٌ حَقِيرٌ لَا ذُو بَرَاءَةٍ فَأَعْتَذِرَ، وَلَا ذُو قُوَّةٍ فَأَنْتَصِرَ، وَلَا ذُو حُجَّةٍ فَأَحْتَجَّ بِهَا، وَلَا قَائِلٌ لَمْ أَجْتَرِحْ وَلَمْ أَعْمَلْ سُوءاً وَمَا عَسَى الْجُحُودُ لَوْ جَحَدْتُ يَا مَوْلَايَ يَنْفَعُنِي كَيْفَ وَأَنَّى ذَلِكَ وَجَوَارِحِي كُلُّهَا شَاهِدَةٌ عَلَيَّ بِمَا قَدْ عَمِلْتُ»[1].

فليس بمقدور الإنسان التنصّل من أفعاله يوم القيامة بأيِّ حالٍ من

(١) السيد ابن طاووس. إقبال الأعمال، ج٢، ص٨٣.

الأحوال. لذلك من الخير للإنسان أن يتجنّب الوقوع في شرك المعصية من حيث المبدأ، وأن ينأى بنفسه عن أيِّ عمل يمكن أن يحاسب عليه أمام الله يوم القيامة. وحيث إنّ الإنسان يبقى معرضًا لارتكاب الخطأ، فخير له أن يصفّي حساباته مع الله تعالى ومع الناس في الدنيا، قبل أن يساق إلى المحكمة الإلهية في الآخرة، ما دام الأمر متاحًا لتصفية سائر المتعلقات والحقوق، حيال العباد، وحيال ربّ العباد، ليسحب كلّ الدعاوى المرفوعة ضدّه، فلماذا يماطل المرء ويسوّف في هذا الأمر إلى أن يجد نفسه في حضرة الله تعالى يوم لا ينفع مال ولا بنون؟ يوم تتكالب عليه الشهادات والدلائل من كلّ حدب وصوب، فلا يعود قادرًا على الفكاك أو التنصّل من كل ذلك. وما من سبيل إلّا بالتوبة إلى الله والإنابة إليه، والخروج من حقوق العباد، حتى يأتي العبد يوم القيامة وهو أبعد ما يكون عن الوقوف في ذلك الموقف الصعب.

حتى لا نندم يوم القيامة

يحفل القرآن الكريم بالكثير من الآيات المباركات التي تحذر الإنسان من حال الحسرة والندامة في يوم القيامة. إن العقل والفطرة السليمة يدعوان المرء إلى الاستجابة إلى التحذيرات الصادرة عن ذوي الخبرة، سيما إذا اجتمعت إلى جانبها الشفقة. فالخبير المشفق لا يلقي الكلام على عواهنه، ولا يعطي التحذير اعتباطًا، ذلك لأنه مشفق ويريد المصلحة والخير لك.

نعم إذا كان التحذير قد جاء من طرف لا تثق بخبرته، أو لا تثق بإخلاصه لك، فلربما كان ذلك مبررًا لعدم الاستجابة، أما إذا كان المحذر لك طرف تثق بخبرته وإخلاصه، فإنّ عقلك وفطرتك يدعوانك لأخذ تحذيره بعين الاعتبار، وحينما يقول لك ذلك الخبير المشفق إنك ستندم حتمًا لو لم تحذر أمرًا من الأمور، فإنّ هذا مما يوجب مضاعفة الاهتمام، فإذا لم يؤخذ التحذير حينها بعين الاعتبار وأصبحت أمام الكارثة فهنا يكون الندم في النفس مضاعفًا.

إنّ الله تعالى وهو الخبير بنا، والعالم بهذه الحياة ماضيها وحاضرها

ومستقبلها، وهو الرحيم الذي لا يريد لنا إلّا خيرًا، هذا العليم الخبير يحذر عباده من ولوج بعض المسالك في هذه الحياة الدنيا، خشية التعرض للحسرة والندامة الكبيرة يوم لا ينفع مال ولا بنون، أفلا ينبغي لنا أن نأخذ هذا التحذير الإلهي بعين الاعتبار؟.

إنّ الله سبحانه يصف يوم القيامة بأنه يوم الحسرة. جاء في الآية الكريمة ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة مريم، الآية: ٣٩]، والحسرة تعني الندامة الشديدة المؤلمة لنفس الإنسان، فيوم القيامة هو يوم الندامة الشديدة. وقد حذرت آيات عديدة في القرآن الكريم من أن يصاب الإنسان بالحسرة في ذلك اليوم. وتنقسم الحسرة يوم القيامة إلى نوعين: حسرة خاصة تصيب بعض الأصناف من الناس، وحسرة عامة تصيب جميع البشر المحسن منهم والمذنب، فيندم المذنب نتيجة أخطائه، فيما يندم المحسن؛ لأنه لم يزد في إحسانه، فيتمنى لو ازداد في عمل الخيرات. وذلك يشبه تمامًا كما لو عرضوا على تاجر شراء كمية من الأسهم الرابحة وعنده من المال الكثير، لكنه اكتفى بشراء كمية ضئيلة من الأسهم حتى بعد نصيحة ذوي الخبرة، فإذا بهذا التاجر يجد لحظة جني الأرباح أسفًا وندمًا شديدًا في نفسه؛ لأنه لم يستمع لنصيحة ذوي الخبرة في هذا الشأن، وإلّا لازدادت أرباحه أضعافًا مضاعفة.

ثمة العديد من النصوص الدينية التي تصور لنا حال الحسرة لدى البشر يوم القيامة تصويرًا دقيقًا، كما لو كنّا نعيش تلك اللحظة. ومن

ذلك قوله تعالى ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾[سورة الزمر، الآية: ٥٦]، فالآية الكريمة تصور الواحد من هؤلاء وهو يعاتب نفسه عتابًا مرًّا على تجاهله تحذيرات ربّ العالمين وعدم أخذه الأمر على نحو الجد.

كما ورد عن النبي قوله ﷺ: «يا بن مسعود، أكثر من الصالحات والبر فإنّ المحسن والمسيء يندمان. يقول المحسن يا ليتني ازددت من الحسنات، ويقول المسيء قصرت وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾»[١]. وعنه ﷺ: «شر الندامة ندامة يوم القيامة»[٢]، ذلك لأنّ ندامة الدنيا تنسى مع مرور الأيام لكن ندامة الآخرة هي الأشد والأبقى. ولنا أن نتأمل هذا النص الوارد عن رسول الله ﷺ الذي جاء فيه «الحسرة أن يرى أهل النار منازلهم من الجنة»[٣]، وذلك بأن يعرض على أهل النار قصورهم المعدة لهم في الجنة في حال أطاعوا ربهم في الدنيا، لكن وبسبب تفريطهم فقد فوتوا على أنفسهم هذه القصور، وهنا تكون الندامة أكثر شدة وقسوة على النفس.

أشدّ ألوان الحسرة

هناك نصوص دينية تتحدث عن حالات خاصة تكون فيها الحسرة يوم القيامة في أشد ألوانها، وأبرزها ثلاثة موارد:

---

(١) بحار الأنوار. ج٧٤، ص١٠٤.
(٢) الكافي. ج٨، ص٦٨، حديث٣٩.
(٣) جلال الدين السيوطي. الدر المنثور، ج٣، ص٩.

المورد الأول: الكسب غير المشروع يعود للوارث الصالح

ينهمك البعض في جمع المال بكلّ صورة مشروعة وغير مشروعة، ولا يؤدون حقّ الله فيها، ثم يرحلون عنها، فتعود لورثتهم الذين ينتفعون بها، وينفقونها في مختلف أوجه البر. ويأتي صاحب المال يوم القيامة فيرى ورثته يدخلون الجنة بسبب المال الذي كسبه هو بطرق غير مشروعة وخلفه لهم، أما هو فيدخل بسببه النار، وهنا الحسرة الكبرى. ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إِنَّ أَعْظَمَ الْحَسَرَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَسْرَةُ رَجُلٍ كَسَبَ مَالًا فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّـهِ فَوَرِثَهُ رَجُلٌ فَأَنْفَقَهُ فِي طَاعَةِ اللَّـهِ سُبْحَانَهُ فَدَخَلَ بِهِ الْجَنَّةَ وَدَخَلَ الْأَوَّلُ بِهِ النَّارَ»[١].

وسيّان في ذلك من يكسب المال بطرق غير مشروعة ومن لا يؤدي الحقوق الشرعية من أمواله، وقال جمع من الفقهاء في هذا الصنف الأخير من الناس، أنه إذا كان شخص لا يخمّس أمواله عصيانًا، فلا يجب على ورثته تأدية الخمس عنه، بل يتصرفون فيه كيف شاؤوا وعليه وزر التقصير. وسئل أمير المؤمنين عليه السلام: «من أعظم الناس حسرة؟ قال: من رأى ماله في ميزان غيره، فأدخله به النار وأدخل وارثه به الجنة»[٢]. جميع هذه النصوص تحذّرنا وتلفت أنظارنا إلى ضرورة أن ننتبه لأنفسنا، حتى لا نقول إنا كنّا عن هذا غافلين.

---

(١) نهج البلاغة. حكمة ٤٢٩.
(٢) بحار الأنوار. ج٧٠، ص١٤٢، حديث٢١.

المورد الثاني: الواعظ غير المتعظ

إنّ الوعاظ هم أولى الناس بالتزام الموعظة الحسنة التي يلقونها على أسماع الناس. فالواعظ سواء كان خطيبًا أو عالمًا أو حتى إنسانا عاديًا، يأمر الناس بالخير والمعروف، فيدخل الناس الجنة بسببه، وقد يدخل هو نفسه النار؛ لأنه لم يتعظ ولم يعمل الخير الذي أمر به الناس، بل على النقيض من ذلك، فقد يكون خالف مواعظه الملقاة تمامًا. فأمثال هذا ينظر إلى المستمعين لموعظته فيراهم في الجنة فيسألهم: كيف أتيتم هنا؟ فيقولون: جئنا بسبب التزامنا مواعظك فأنت الذي هديتنا، وههنا تكون الحسرة شديدة ومضاعفة. يقول الإمام الباقر عليه السلام لخيثمة: «أبلغ شيعتنا أنه لا ينال ما عند الله إلّا بالعمل، وأبلغ شيعتنا أنّ أعظم الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلًا ثم خالفه إلى غيره»[١].

فماذا ينفعنا الافتخار بسيرة أئمتنا أمام الآخرين، دون أن نقتدي بهم ونمشي على خطاهم، ذلك مما يورث الحسرة في النفوس يوم القيامة. ولنتأمل هذه الرواية، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ أشدّ أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبدًا إلى الله عزّ وجلّ فاستجاب له وقبل منه فأطاع الله، فأدخله الله الجنة، وأدخل الداعي النار بتركه علمه واتباعه الهوى»[٢]. وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «يطلع قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون: ما أدخلكم النار وقد دخلنا الجنة لفضل

(١) وسائل الشيعة. ص٦٩، حديث٢٢.
(٢) الكافي. ج١، ص٤٤، حديث١.

تأديبكم وتعليمكم؟ فيقولون إنا كنا نأمركم بالخير ولا نفعله»[١].

المورد الثالث: التضحية بالدين لمصلحة الغير

إن ألزم ما على المرء دينه. فالشقي من باع دينه بدنياه لهثًا وراء مصالحه الشخصية، أما الأشقى منه فهو من باع دينه بدنيا غيره. فقد يشهد أحدهم شهادة زور لصالح شخص آخر، فينتصر له بالباطل، فيربح ذلك الطرف القضية بفضل شهادة الزور تلك، فيما يبوء صاحب الشهادة المزورة بذنبه. وكذلك الأمر مع من يضحون بدينهم من أجل الظالمين، ممن هم على شاكلة الأربعين من علماء البلاط الذين شهدوا ليزيد بن عبدالملك زورًا بأنّ الخلفاء ما عليهم حساب ولا عذاب[٢]!، فهذا الخليفة سينغمس في ملذاته الدنيوية المحرمة، لكن ماذا سيجني أولئك في مقابل ذلك؟.

ينتفع الحكام بفتاوى فقهاء السلاطين فيكون لهم العذاب في الآخرة، وهذا مصداق لمن يبيع آخرته لأجل دنيا غيره. ورد عن رسول الله ﷺ: «إنَّ أَشَدَّ النّاسِ نَدامَةً يَومَ القِيامَةِ، رجُلٌ باعَ آخِرَتَهُ بدُنيا غَيرِهِ»[٣]، وسُئل أمير المؤمنين عليه السلام: أَيُّ اَلْخَلْقِ أَشْقَى قَالَ: «مَنْ بَاعَ دِينَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ»[٤].

(١) جامع أحاديث الشيعة. ج١٤، ص٤٢٣.
(٢) شمس الدين الذهبي. سير أعلام النبلاء. ج ٥، ص ١٥١.
(٣) كنز العمال. حديث١٤٩٣٦.
(٤) من لا يحضره الفقيه. ج٤، ص٣٨٣.

الوقاية من عذاب الله

يعمل الإنسان جاهدًا في هذه الحياة أن يقي نفسه من العناء والآلام، وإذا أصيب بأيّ ألم في جسمه، فإنه يسارع للاستشفاء؛ لأنّ الألم يفقد الإنسان راحته وسعادته، لذلك يسعى لإبعاد الألم عن جسمه.

الله سبحانه يذكر الإنسان بأنّ حياته لا تقتصر على هذه الدنيا، وأنّ هناك دارًا أخرى سينتقل إليها، وهي الأطول، فكما يهتم بدفع الألم عن نفسه في هذه الدنيا، عليه أن يكون حريصًا وحذرًا ألّا يقع في آلام الآخرة.

آلام الآخرة لا يقاس بها أيّ ألم يتعرّض له الإنسان في الدنيا؛ لأنّ آلام الدنيا يستطيع الإنسان أن يتلافاها، وأن يتقي بعضها، ويجد الدواء الذي يتشافى به، أو يبحث عن مختلف السبل للهرب منها، وهي آلام مؤقتة محدودة.

أما آلام الآخرة، وهي العذاب في نار جهنم ـ والعياذ بالله ـ فإنه ألم لا مجال للفرار منه، وإلى أين يفرّ الإنسان من نار جهنم إذا كتب الله عليه ذلك؟

وكيف يتعالج؟ أم كيف يتقي ذلك الألم؟

لذلك من الأهمية بمكان أن يتذكّر الإنسان الآخرة، وما فيها من أهوال، وعذابات تنتظر العصاة.

كثير من الآيات القرآنية تحذّر الإنسان من ارتكاب المعاصي، والتساهل في مراعاة حقوق الناس، وأن ما ينتظر الإنسان من أهوال يوم القيامة تصفه الآيات الكريمة بما لا يستطيع الإنسان تصوّره؛ لأنه فوق الوصف، كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾.

لماذا هذا الوصف الفظيع؟ ذلك لكي يتجنب الإنسان أن يقع فيه، ولكي يحمي نفسه من أهواله وشدائده.

نحن مطالبون بمراعاة حقّ الله على العباد، وذلك بالطاعة والالتزام بأوامره ونواهيه سبحانه.

ومطالبون باحترام حقوق الآخرين، فالتفريط فيها يوقف الإنسان يوم القيامة للمساءلة والمحاسبة والمجازاة.

إنّ ظلم الناس في هذه الدنيا وإيقاع الألم بهم، هو من أهمّ الأسباب التي تؤدي إلى وقوع الإنسان في أذى العذاب في الآخرة.

كثير من الناس تشغلهم الدنيا عن التفكير في الآخرة، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[سورة الروم، الآية:٧] فهم كالجنين الذي في بطن أمه لا يعلم ما يستقبله.

هل يدرك الجنين وهو في بطن أمه، ما هي معادلات الحياة التي

تنتظره في هذه الدنيا؟ كذلك نحن لا ندرك ما يواجهنا يوم القيامة. لهذا فإن التصوير القرآني في جانبي النعيم والعذاب، جاء ليقرّب الصورة عمّا يحدث في الآخرة، وذلك بمقدار ما تستوعبه عقولنا.

الآية الكريمة كأنها تثير استفهامًا للتعجب ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾، أيها الإنسان، هل لك صبر على حرّ النار؟ وهل تعلم ماذا يعني عذاب نار جهنم؟ حتى توطن نفسك على الصبر عليه؟

وما دام الإنسان لا يمتلك العلم والإدراك بما في ذلك العالم، فعليه أن يأخذ العلم من ربّ ذلك العالم وخالقه سبحانه وتعالى.

جهنم عذاب أبديّ

الله سبحانه وتعالى يحذّرنا بأن العذاب في نار جهنم عذاب أبديّ، فإذا أصيب الإنسان في هذه الدنيا بحرق فإنّ الإحساس بالألم يخفّ بعد أن يتيبّس موضع الاحتراق من الجلد، قد يتكيف الإنسان مع الألم في الدنيا لمحدودية موضعه ومدته، أما في الآخرة، فالألم يتجدّد، يقول تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾[سورة النساء، الآية ٥٦] وهي دلالة على استمرار العذاب.

روي أنّ ابن أبي العوجاء سأل الإمام الصادق عليه السلام: ما تقول في هذه الآية ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾، هَبْ هذه الجلود عصت فعُذّبت، فما بال الغيرية؟ فقال أبو عبدالله عليه السلام: ويحك! هي هي، وهي غيرها.

قال: أعقلني هذا القول. فقال له: أرأيت لو أنّ رجلًا عمد إلى لبنة

فكسرها، ثم صبّ عليها الماء وجبلها (دَعَكها)، ثم ردّها إلى هيأتها الأولى، ألم تكن هي هي، وهي غيرها؟

فقال: بلى، أمتع الله بك[١].

فهذه جلودهم تتجدّد ليذوقوا العذاب الأليم، وفي آية أخرى يبيّن الله سبحانه صفة هذا العذاب: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾[سورة الزخرف، الآيات: ٧٤-٧٦] إنه أبديّ لا يتوقف، والمعذّب فيه يصاب باليأس من تخفيف العذاب، وهذا نتاج ما قدمت أيديهم في هذه الدنيا، وحاشا لله أن يظلم عباده.

وفي آية أخرى، يتمنى أهل النار الموت على ما يرونه من عذاب ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾[سورة الزخرف، الآية: ٧٧]، إنهم من شدة العذاب، وأهوال جهنم، يبحثون عن الموت.

هل يعقل أن يسلّم الإنسان ذاته وجسمه الذي يرفّهه في الدنيا إلى نار الحريق من أجل شهوة عابرة؟ أو بسبب حقٍّ لأحد يسلبه منه؟ أو اعتداء بظلم على ضعيف ليس له معيّن؟ أو مخالفة أوامر الله سبحانه؟

على الإنسان أن يفكّر في ذلك مليًّا، ولا يعيش الغفلة، فكثير ممن يقع ضحية الإجرام والانحراف، إنما يكون ذلك بسبب الغفلة عن الآخرة، وعن عذابها المهول، والانشغال بالدنيا ولذاتها الزائلة.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وَ اعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهَذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ

(١) الأمالي. ص٥٨١.

عَلَى النَّارِ فَارْحَمُوا نُفُوسَكُمْ فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا أَ فَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ تُصِيبُهُ وَ الْعَثْرَةِ تُدْمِيهِ وَ الرَّمْضَاءِ تُحْرِقُهُ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَارٍ ضَجِيعَ حَجَرٍ وَ قَرِينَ شَيْطَانٍ أَ عَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكًا إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ بَعْضُهَا بَعْضًا لِغَضَبِهِ وَ إِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعًا مِنْ زَجْرَتِهِ؟»[1].

على الإنسان كما يقي نفسه آلام الدنيا، أن يفكّر في آخرته وكيف يقي نفسه آلامها، وألّا يجعل الدنيا شغله الذي يشغله عنها، فهو ضعيف عن بلاء الدنيا، فكيف له تحمل عذاب الآخرة.

ينبغي لنا أن نلجأ إلى الله، وأن نستغفره ونتوب إليه، لعلّنا ننجو بأنفسنا من أهوال القيامة، ونحظى بلطف الله ورحمته.

(١) نهج البلاغة. خطبة ١٨٣.

لماذا العذاب والنار؟

من بين كلّ الصفات، اختار الله سبحانه وتعالى لذاته صفة الرحمة، لتكون مرافقة ومرادفة لاسمه تعالى، كما هو في البسملة التي تفتتح بها كلّ سور القرآن الكريم، حيث نقول (بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ)، (الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ) اسمان مشتقان من الرحمة، وهما من أبنية المبالغة، والرحمن أبلغ من الرحيم، كما أنّ الرحمن خاص بالله تعالى، لا يسمى به غيره ولا يوصف، فيمكن أن تصف شخصًا ما بأنه رحيم كريم جميل، لكن (رحمن) اسم خاصٌ بالله سبحانه، لذلك يقول تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ ويقول تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾، وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾، وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، فهو خاصٌّ بالله سبحانه، وفِي القرآن الكريم تتكرر صفة الرحمة إلى جانب صفات أخرى في ذات السياق كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، العطف والعفو والمغفرة، كلّ هذه الصفات نراها متكررة في آيات القرآن الكريم، لتأكيد جانب الرحمة و اللطف والرأفة

في الصفات الإلهية.

الحديث عن عذاب الله

من جانب آخر يتحدث القرآن الكريم عمّا أعدّه الله تعالى للكافرين والمعاندين والظالمين والعصاة من العذاب والعقاب، لتحذير عباده من ذلك، القرآن الكريم فيه مساحة واسعة للحديث عن النار والعذاب يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾، وفي آيات أخرى يتحدث القرآن عن العذاب في نار جهنم، يقول تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

ويقول تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾.

من جهة نرى تأكيدًا على صفة الرحمة، ومن جهة أخرى نجد هذه الصور عن العذاب والعقاب!!

هنا يأتي السؤال: لماذا خلق الله جهنم، وقرّر العذاب، وهو الرحيم بعباده؟!

بعض الفلاسفة ادّعوا بأنّ الحديث عن النار والعذاب في يوم القيامة مجرد تخويف، ليس له حقيقة، فهو شيء وهمي، جاءت

الأديان به كي تخوف الناس، وتجعلهم يبتعدون عن الظلم والمعاصي والذنوب؛ لأنّ الأنبياء لديهم هدف نبيل، هو تحذير الناس من الظلم والمعاصي، فاستخدموا هذا الأسلوب، ويشبهون ذلك بالأب الذي يحذّر أطفاله من بعض الموجودات الوهمية، (لا يأتيك الغول) أو كما كان في بلادنا سابقًا (لا تأتيك أم الخضر والليف)!!

أو كمن يهدد ابنه بعقوبات لا يقصد إيقاعها (أقتلك.. أذبحك)!

بعض الآباء يستخدم هذه الأساليب من أجل ردع أبنائه وتربيتهم، لكن لا يقصد بها الأمر الحقيقي، ويرى هؤلاء الفلاسفة أنّ ما ورد في القرآن من حديث عن جهنم وعن النار والعذاب لو كانت حقيقية فإنها لا تليق برحمة الله وعفوه.

بالطبع لا يمكن القبول بهذا التفسير، فالأديان ترفض هذه الأساليب الملتوية، والأنبياء لا يستخدمون الوسائل غير السليمة، فالكذب في حدّ ذاته أمر قبيح، ولا يمكن أن يأتي الله تعالى بكلام غير حقيقي، وإن كان لوسيلة نبيلة، فالغاية لا تبرر الوسيلة، ولو جاز أن نفترض هذا الأمر، لكان احتمال وجوده في مجالات أخرى قائمًا، وهنا لا تصبح للأديان وللشرائع واقعية ولا مصداقية. من ناحية أخرى، فإنّ آيات القرآن الكريم واضحة ظاهرة أنّ الجنة والنار والثواب والعذاب أمر حقيقي، وليس للترهيب والترغيب فقط، بل يثير القرآن الكريم مثل هذا الاحتمال ويفنّده، يقول تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ * وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾؟

فيأتي الجواب قاطعًا: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾

فالدينيون في كلّ الأديان يعتقدون أنّ الجنة والنار وجود حقيقي، وليس أمرًا وهميًّا للترهيب والترغيب.

لماذا العذاب من الرب الرحيم؟

وهنا يأتي السؤال: لماذا هذه النار وهذا العذاب والعقاب من قبل الربّ الغفور الرحيم؟

في الواقع هذه النار وهذا العذاب من أجل مصلحة الإنسان نفسه، حيث إنّ لديه غرائز وشهوات تدفعه للظلم وللعدوان والتمرد على خالقه، فيحتاج إلى ردع، وإذا لم يكن هناك عذاب وعقاب، ما الذي يمنع الإنسان من التمادي في غيه وظلمه وطغيانه؟!

لا بُدّ من وجود عذاب وعقاب حتى يكون رادعًا للإنسان، وإذا كان الأمر وهميًّا كما قال الفلاسفة سيكتشف الناس ذلك في وقت ما، وتنتهي مصداقية الردع الذي يحتاجه الإنسان.

إنّ وجود العذاب والنار، يعتبر دافعًا للإنسان نحو الكمال؛ لأنّ شعور الإنسان بهذا الخطر يدفعه للسير في طريق الخير والصلاح؛ فإنّ طبيعة الإنسان مصمّمة بهذا النحو، إذ يندفع الإنسان في الغالب وفقًا للرهبة أو الرغبة.

وبعبارة أوضح: إنّ وجود الجنّة والنار يُذكي في الإنسان الدافع الداخليّ، والالتزام السلوكيّ، بينا إذا فرضنا عدم وجود الثواب

والعقاب هناك، فلا دافع قويًّا للإنسان نحو هذا الاتجاه أو ذاك، أمّا التزام المبادئ والسير على أساسها انقطاعًا إلى الله وعشقًا لعظمته، فهو محصورٌ بأفراد نوادر وأفذاذ في هذه الحياة، كأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام الذي يصف عبادته لخالقه بالقول: «مَا عَبَدْتُكَ خَوْفاً مِنْ نَارِكَ وَلَا طَمَعاً فِي جَنَّتِكَ لَكِنْ وَجَدْتُكَ أَهْلًا لِلْعِبَادَةِ فَعَبَدْتُك»[1].

إنّ عدم وجود حساب وعقاب، يعني تحوّل الحياة إلى عبث، كما صرّحت بذلك الآيات القرآنيّة الكريمة، يقول تعالى: ﴿أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ﴾[سورة المؤمنون، الآية: ١١٥].

ومع كلّ ما تقدّم من مبرّرات لخلق النار، والوعيد بها، إلّا أنها لم تُخلق من أجل التشفيّ والانتقام؛ فهذه المفاهيم بعيدة كلّ البعد عن ساحة عزّه وجلاله، فهو رحمة مطلقة بكلّ ما تحمل هذه الكلمة من معانٍ، وإذا ما وردت في القرآن الكريم آيات تدلّ على ذلك من قبيل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعينَ﴾[سورة الزخرف، الآية: ٥٥].

فهي على سبيل المجاز لا الحقيقة، وترمي مرامًا آخر أجاب العلماء عنه مفصّلاً في بحوثهم التفسيريّة؛ إذ يستحيل التشفّي والانتقام بالمعنى البشريّ المتعارف في حقّه تعالى.

من ناحية أخرى، فإنّ ذلك من أجل أن يثق الإنسان بعدالة الله وحكمته، وإذا لم يكن هناك عذاب ولا عقاب في الآخرة، ماذا سيكون

(١) بحار الأنوار. ج٦٧، ص١٨٦.

مصير المجرمين والظلمة في الدنيا؟!

من يعيثون في الأرض فسادًا، يظلمون، ويسفكون الدماء، وينتهكون الحرمات، ثم يفلتون من العذاب. هل كلّ مجرم يلقى جزاءه في هذه الدنيا؟!

وهل كلّ ظالم تصل إليه العدالة ويقتصّ منه في الدنيا؟!

الأمر واضح، فكم من المجرمين عاشوا حياتهم وأفلتوا من العدالة، بل هناك من لم يُعرف إجرامهم، يتسترون على جرائمهم، أو تحميهم قوتهم من الانتقام في الحياة الدنيا، فإذا انتهت هذه الحياة وانتهى كلّ شيء، إذاً، أين العدالة والحكمة؟!

هنا لا يثق الإنسان بالعدل والعدالة، ولا يثق بحكمة الخالق تعالى، فلا بُدّ من وجود عذاب وعقاب حتى يثق الإنسان بأنّ العدالة تأخذ مجراها في النهاية، وأنّ المجرم والظالم سيصل إلى مرحلة يدفع فيها ثمن طغيانه وبغيه.

بعض المجرمين حتى لو حوكموا في هذه الدنيا، بماذا سيحكم عليه؟!

هذا الذي قتل الآلاف، بل الملايين، مثل بعض الطغاة الذي يكون سببًا في حروب يفنى فيها الملايين من البشر، حتى لو حوكم، بماذا سيحكم عليه؟

أقصى ما سيحكم عليه بالإعدام!

يعدم مرة واحدة وانتهى كلّ شيء!

بعض المحاكم تصدر حكم الإعدام أكثر من مرة على المجرم، لكنه لن يعدم إلّا مرة واحدة، أو يحكم عليه بالسجن، وبعض الأحكام تصل إلى ٤٠٠ سنة، وهو لن يعيش إلّا مدة محدودة، لا تمثل شيئًا في مقابل ظلمه وطغيانه، من هنا كان لا بُدّ من وجود النار والعقاب في الآخرة، من أجل أن تأخذ العدالة مجراها.

إنّ مقتضى العدالة التي يحكم بها العقل، هي التفريق بين المحسن والمسيء؛ وحينما لا تجري العدالة على المجرمين والظالمين في هذه الدنيا ـ كما هو الغالب ـ فلا بُدّ من وجود نشأة أخرى، ترجع فيها الأمور إلى نصابها، ويقتصّ من المجرمين والظالمين، وهي نشأة الآخرة، كما وعدت بها العدالة الإلهيّة، ومع عدم وجود عقاب وحساب فيها، سوف تختلّ هذه العدالة الإلهيّة، وتوضع في دائرة الاستفهام.

جهنم هي لمعاقبة هؤلاء المجرمين الذين يتمادون في غيّهم وإجرامهم، وكفرهم بخالقهم، مع أنّ فطرتهم تدعوهم للإيمان بالله، وعقولهم تدعوهم إلى شكر نعم الله، لكنهم يتمادون في الجحود والكفر فيستحقون العذاب، وإلّا فليست هناك مصلحة لله سبحانه وتعالى في أن يعذّب أحدًا من خلقه.

لا مصلحة لله في عذاب أحد

الآية الكريمة تقول: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ أي ليست لله تعالى مصلحة في أن يعذّب أحدًا، وليست لديه حالة تشفٍّ من أحد، ولكن لهذين الأمرين خلق النار وأوجد العذاب، وكلّ من في قلبه ذرة من

الإيمان ومن الرجاء لله تعالى، فإنّ أبواب الخلاص مفتوحة له، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّ آخِرَ عَبْدٍ يُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ فَيَلْتَفِتُ فَيَقُولُ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ: أَعْجِلُوهُ. فَإِذَا أُتِيَ بِهِ قَالَ لَهُ: عَبْدِي لِمَ الْتَفَتَّ؟.

فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا كَانَ ظَنِّي بِكَ هَذَا؟!.

فَيَقُولُ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ: عَبْدِي مَا كَانَ ظَنُّكَ بِي!..

فَيَقُولُ: يَا رَبِّ كَانَ ظَنِّي بِكَ أَنْ تَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي وَتُدْخِلَنِي جَنَّتَكَ.

قَالَ: فَيَقُولُ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ: مَلَائِكَتِي وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَآلَائِي وَارْتِفَاعِ مَكَانِي مَا ظَنَّ بِي هَذَا سَاعَةً مِنْ حَيَاتِهِ خَيْراً قَطُّ، وَلَوْ ظَنَّ بِي سَاعَةً مِنْ حَيَاتِهِ خَيْراً مَا رَوَّعْتُهُ بِالنَّارِ أَجِيزُوا لَهُ كَذِبَهُ وَأَدْخِلُوهُ الْجَنَّةَ»[1].

رحمة الله واسعة، وهذا ما تؤكّد عليه آيات كثيرة في القرآن الكريم ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

وورد عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «إِنَّ لِلهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[2].

وعنه صلى الله عليه وآله: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَغْفِرَنَّ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْفِرَةً يَتَطَاوَلُ

---

(١) وسائل الشيعة. ج١١، ص١٨٢.

(٢) صحيح مسلم. كتاب التَّوْبَةِ، بَابٌ فِي سِعَةِ رَحْمَةِ اللَّـهِ تَعَالَى وَأَنَّهَا سَبَقَتْ غَضَبَهُ، حديث رقم ٥٠٧٣.

لَهَا إِبْلِيسُ رَجَاءَ أَنْ تُصِيبَهُ»[١].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَشَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَحْمَتَهُ حَتَّى يَطْمَعَ إِبْلِيسُ فِي رَحْمَتِه»[٢].

لكن هذا لا يعني أنّ الإنسان يتكل على الرجاء والرحمة الواسعة، فيتساهل ويتهاون في المعصية؛ لأنّ هذه الرحمة والمغفرة محتملة وليست حتمية، وقد يمرّ الإنسان بشيء من العذاب!

لماذا يحمل نفسه شيئًا ولو قليلًا من العذاب؟!

وقليل العذاب هناك كثير، لذلك على الإنسان ـ مع اتكاله واعتماده وثقته برحمة الله ـ أن يكون خائفًا من عذاب الله، وعقابه، عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «ارْجُ الله رَجَاءً لا يُجَرّئُكَ على مَعاصِيهِ، وخَفِ الله خَوفًا لا يُؤْيِسُكَ مِن رَحمَتِهِ»[٣].

علينا أن نثق برحمة الله تعالى، فهذه الآيات وهذه النصوص إنّما هي تقصد المجرمين الظلمة العتاة المتمردين على الله، لكن الإنسان المؤمن لا ينبغي أن تجرّئه الثقة برحمة الله على المعصية؛ لأنّ هناك عذابًا وعقابًا قد يلحق بالإنسان يوم القيامة، فيحتاج إلى رحمة الله لكي تنقذه من تقصيره ومن أخطائه وذنوبه.

---

(١) سليمان بن أحمد الطبراني. المعجم الكبير، حديث رقم ٢٩٥٢.
(٢) الأمالي. ص٢٧٤.
(٣) جامع أحاديث الشيعة. ج١٤، ص١٦٨.

باب التوبة مفتوح

ومع كون النار حقًّا وحقيقة، لكن الله سبحانه وتعالى فتح باب الخلاص من النار أمام عباده، لذا يجد الإنسان اسم الجلالة مقرونًا بالرحمة والرحمانيّة بنحوٍ دائم فيقول: بسم الله الرحمن الرحيم، وهذه الصفّة يجري توكيدها؛ لكي يعرف الإنسان أنّ الله رحيم به، ولا يريد به العذاب، وكما قال تعالى: ﴿ما يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكانَ اللَّهُ شاكِراً عَليماً﴾[سورة النساء، الآية: ١٤٧].

العذاب ظاهرة استثنائيّة

ليس العذاب ـ كما يبدو ذلك من مجمل النصوص الدينيّة ـ ظاهرة عامّة تلحق بني البشر بمجموعهم، وإنما هي ظاهرة استثنائيّة خاصّة تشمل البعض منهم؛ إذ إنّ الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليرحمهم لا ليعذبهم، قال تعالى: ﴿ قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾[سورة الزمر، الآية: ٥٣].

كما ورد عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «إنّ لله تعالى مئة رحمة، وأنه أنزل منها رحمة واحدة إلى الأرض فقسّمها بين خلقه، فبها يتعاطفون وبها يتراحمون، وأخر تسعًا وتسعين رحمة لنفسه، بها يرحم عباده يوم القيمة»[1].

عجز العقل عن إدراك تفاصيل القيامة

وعلينا الإشارة إلى أنّ تفاصيل الأحداث في يوم القيامة، والمواقف

(١) محمد تقي المجلسي. روضة المتقين، ج٢، ص٣١٨. وقريب منه في صحيح مسلم. ص١٤٧٢، حديث١٩.

التي تمرّ على الناس فيها، من الصراط، وتطاير الكتب، ودرجات الجّنة، ودركات النار، وطُرق التنعيم والتعذيب، إنما نستقيها من الوحي والنصوص الدينيّة، ولا مجال للعقل إليها على الإطلاق، كما نصّ على ذلك كبار الفلاسفة.

قال ابن سينا: «يجب أن يعلم أنّ المعاد منه ما هو منقول من الشرع، ولا سبيل إلى إثباته إلّا من طريق الشريعة، وتصديق خبر النبوة، وهو الذي للبدن عند البعث»[١].

رحمة الله واسعة لكلّ شيء

أجل؛ الرحمة الإلهيّة شاملة لكلّ الموجودات؛ فلنصغ إلى رواية وردت عن الإمام الصادق عليه السلام تؤكّد هذه الحقيقة، قال فيها: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَشَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَحْمَتَهُ حَتَّى يَطْمَعَ إِبْلِيسُ فِي رَحْمَتِه»[٢].

وهذه النصوص تؤكّد كون العذاب والنار استثناء، وليست القاعدة التي تسير عليها الأحداث في يوم القيامة، وهذا ما يعبّر عنه في بعض الدراسات العرفانيّة بحكومة بعض الأسماء الإلهيّة على بعضها الآخر؛ حيث إنّ الرحمانيّة والرحيميّة الإلهيّة تكون حاكمة وقاهرة على اسم المنتقم المعذّب، وغيرها من الصفات الإلهيّة في هذا السياق.

وفي إطار التدليل على هذه الفكرة ننقل نصًّا جاء عن الإمام علي

(١) ابن سينا. الشفاء، الإلهيات، ص٤٢٦، الفصل السابع من المقالة التاسعة.
(٢) الأمالي. ص٢٠٥.

بن الحسين عليه السلام حيث قيل له: «إِنَّ الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ قَالَ: لَيْسَ الْعَجَبُ مِمَّنْ هَلَكَ كَيْفَ هَلَكَ وَإِنَّمَا الْعَجَبُ مِمَّنْ نَجَا كَيْفَ نَجَا.

فَقَالَ عليه السلام: أَنَا أَقُولُ لَيْسَ الْعَجَبُ مِمَّنْ نَجَا كَيْفَ نَجَا وَإِنَّمَا الْعَجَبُ مِمَّنْ هَلَكَ كَيْفَ هَلَكَ مَعَ سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ»[١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ...﴾[سورة النساء، الآية: ٤٨].

والاعتقاد برحمة الله، يدفع الإنسان نحو التوازن، والعيش بين حالتي الخوف والرجاء، فلا ينبغي الانغماس في المعاصي وممارسة الرذائل، والابتعاد عن الأوامر الدينية، بحجة الرحمة الإلهيّة.

من هنا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام القول: «ارْجُ اللَّـهَ رَجَاءً لَا يُجَرِّئُكَ عَلَى مَعَاصِيهِ، وَخَفِ اللَّـهَ خَوْفاً لَا يُؤْيِسُكَ مِنْ رَحْمَتِهِ»[٢].

ويكفي أن ندلّل على انفتاح باب الرحمة الإلهيّة من خلال موضوع الشفاعة، الذي فتحه الله للمذنبين الذين تجاوزوا الحدود الإلهيّة، وظلموا أنفسهم بالتمرّد على طاعته؛ فالأنبياء والشهداء والعلماء يشفعون، بل المؤمن العادي يشفع أيضًا كما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «... إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَشْفَعُ فِي مِثْلِ رَبِيعَةَ وَمُضَر»[٣].

ونختتم حديثا حول الشفاعة بما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال:

---

(١) بحار الأنوار. ج٧٥، ص ١٥٣، حديث١٧.
(٢) الأمالي. ص١٤.
(٣) بحار الأنوار. ج٨، ص٣٨.

«يَقُولُ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْ رَبِّ عَبْدُكَ فُلَانٌ سَقَانِي شَرْبَةً مِنْ مَاءٍ فِي الدُّنْيَا فَشَفِّعْنِي فِيهِ؟

فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ.

فَيَذْهَبُ فَيَتَجَسَّسُ فِي النَّارِ حَتَّى يُخْرِجَهُ مِنْهَا»[١].

وقال ﷺ أيضًا: «إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مَنْ سَيُدْخِلُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَتِهِ أَكْثَرَ مِنْ مُضَر»[٢].

فعلى الإنسان أن يعرف أنّ أبواب الرحمة مفتوحة بلا حدود، وعلى المؤمن الذي يحمل همّ الانعتاق من العذاب، والخلاص من النار، أن يستثمر الفرصة، ورد عنه ﷺ: «إِنَّ لِلَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ سِتَّ مِائَةِ أَلْفِ عَتِيقٍ مِنَ النَّارِ كُلُّهُمْ قَدِ اسْتَوْجَبَ النَّارَ»[٣].

على أنّ الأرقام الواردة في بعض النصوص الدينيّة هي لإيضاح الكثرة فقط، وقد تكون ليست مقصودة بذاتها.

إنّ الغفران والدخول إلى الرحمة الإلهيّة في متناول الجميع، ولا يتطلّب سوى التوبة والإنابة إلى الله عزّ وجلّ، بنيّة صادقة، وحسن سريرة، كما نوهّت لذلك النصوص الدينيّة الشريفة.

---

(١) بحار الأنوار. ج٨، ص٣٣.
(٢) المصدر نفسه. ص٣٤.
(٣) المصدر نفسه. ج٨٦، ص١٣٠.

الفصل الرابع : **محطات روحية**

الدعاء مكاسب مضمونة

كلّ من يؤمن بوجود خالق للحياة ومدبّر للكون، فإنه يندفع فطريًّا للالتجاء لذلك الخالق، سيّما عند الشدائد والملمات؛ لأنه يؤمن بقدرة هذا الخالق، وهيمنته على كلّ شيءٍ في الحياة.

هذا اندفاع فطري، حتى عند البشر الذين لا يلتزمون حالة دينية، فإنّ فطرتهم تدفعهم عند الشدائد للالتجاء إلى القوة المدبرة لهذا الكون، وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾[سورة يونس، الآية:١٢]. وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾[سورة الروم، الآية:٣٣].

في كلّ الديانات السماوية احتلّ الدعاء موقعًا رئيسًا من بين العبادات. وفي الإسلام نجد اهتمامًا بالغًا به، ويكفي أن الله تعالى يحث عباده عليه ويطلبه منهم: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي﴾ يريد سبحانه من عباده أن يتوجهوا إليه بالدعاء، وبالمقابل: يضمن لهم الاجابة

﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

وفي الأحاديث نصوص كثيرة تركّز على الدعاء باعتباره من أهمّ وسائل التواصل بين العبد وربه. ورد عن رسول الله ﷺ: «الدعاء مخّ العبادة»(١) أي جوهرها. وورد عنه ﷺ: «ترك الدعاء معصية»(٢). وعنه ﷺ: «أفضل العبادة الدعاء»(٣).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أحبّ الأعمال إلى الله في الأرض الدعاء»(٤).

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «ما من شيءٍ أحبّ إلى الله تعالى من أن يُسأل»(٥).

وورد أنه سئل الإمام الصادق عليه السلام: «ما تقول في رجلين دخلا المسجد جميعًا كان أحدهما أكثر دعاءً والآخر أكثر صلاة، أيهما أفضل؟ قال عليه السلام: كلٌّ حَسَنٌ. فأعاد السائل: قد علمت، ولكن أيّهما أفضل؟ فأجاب عليه السلام: أكثرهم دعاءً. أما تسمع قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾؟ ثم أضاف الإمام: هي العبادة الكبرى»(٦). وورد عن

(١) بحار الأنوار. ج٩٠، ص٣٠٢.
(٢) ورّام بن أبي فراس المالكي. تنبيه الخواطر و تنزيه النواظر، ج٢، ص١٢٠.
(٣) الكافي. ج٢، ص٤٦٦.
(٤) المصدر نفسه. ج٢، ص٤٦٧.
(٥) بحار الأنوار. ج٩٠، ص٢٩٢.
(٦) الشيخ الحويزي. تفسير نور الثقلين، ج٤، ص٥٢٨.

رسول الله ﷺ ومثله عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام: «الدعاء أفضل من قراءة القرآن»[١].

فلسفة الدعاء

في حديثنا نريد أن نستكشف شيئًا من فلسفة الدعاء. لماذا يريد الله من عبده أن يدعوه ويتقرّب إليه بالدعاء؟

أولًا لأنّ الدعاء يُعزّز عبودية الإنسان لربه، ويُعزّز في نفسه إيمانه بقدرة ربه وهيمنته على كلّ شيء، وحين يدعو الله فإنه يقرّ بأنّ الله قدير على إجابة دعوته، وأنه رحيم به. ويذعن بأنه فقير إلى الله ومحتاج إليه.

وثانيًا لأنّ الدعاء يرفع معنويات الإنسان ويقوّي ثقته ورجاءه، فحين يدعو ربه فهو يعتقد بأنّ الله تعالى مستعد لتلبية دعائه. يقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[سورة البقرة، الآية:١٨٦]. إنه تعهّد من الله سبحانه وتعالى بالإجابة، وهذا بلا شك يرفع معنويات العبد.

ولتقريب الصورة، فلننظر إلى حياتنا ونلحظ علاقاتنا مع بعضنا كيف ترتفع معنوياتنا، وتزيد ثقتنا بمن يبدي استعداده لتلبية مطالبنا؟ فالزوج إذا قال لزوجته: تدلّلي، اطلبي ما تشائين، وأنا مستعدّ للتلبية، فإنه بلا شك يرفع معنويات زوجته، وستشعر بالعزّ والفخر. وكذلك الأب حين يُدلّل أولاده ويعلن لهم أنه يُلبّي ما يريدون. والحال نفسه

(١) مستدرك الوسائل. ج٥، ص٣٣.

في كلّ علاقة بين بني البشر، فالإنسان يفخر بصديقه إذا كان يجده وقت الضيق، وأنه حاضر معه في كلّ وقت.

فكيف إذا كان من يُدلّلك أيّها العبد، ويقول لك اطلب ما تتمنى وأنا أجيب، هو الله سبحانه وتعالى الذي بيده كلّ شيء؟ إنه ينادي يا عبادي ماذا تريدون؟ اطلبوا كلّ ما تتمنونه في هذه الدنيا وفي الآخرة، وعليَّ الإجابة والتلبية: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. والله تعالى لا يريد من عباده أن يتكبروا عليه بالعزوف عن دعائه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

ليس هناك حدٌّ ولا سقف للمطالب، يمكن للعبد أن يطلب من ربه ما يريد، هناك أفق مفتوح بين العبد وربه، يطلب منه كل شيء، من أتفه الأمور إلى أعظمها في نظر الإنسان. قد يتردّد الإنسان أن يطلب شيئًا صغيرًا من شخص وجيه، ويرجئ الطلب منه لشيءٍ أكبر، لكن الأمر مع الله تعالى مختلف تمامًا. يحب الله من عباده أن يطلبوا منه كل شيء، مهما كان هذا الطلب، ورد عن رسول الله ﷺ: «ليسأل أحدكم ربه حاجته حتى يسأل الملح وحتى يسأله شسع نعله إذا انقطع»[1].

وهذا لا يعني أن يعيش الإنسان بالتمني، وأن كلّ شيء يصل إليه دون أن يبذل جهداً، إنما عليه أن يسعى ويطلب من الله الوصول إلى ما سعى إليه، وكم من أمر يحسبه الإنسان عسيرًا فيقضى له بالدعاء، وكم من أمر يسير ـ كما يحسبه الإنسان ـ ويعزف عن الدعاء لأجله، فيتعسّر

(١) بحار الأنوار. ج٩٠، ص٢٩٥.

عليه. ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «لا تحقّروا صغيرًا من حوائجكم فإنّ أحبّ المؤمنين إلى الله تعالى أسألهم»[١]. حينما يكثر دعاؤك لله تعالى، فإنّ تواصلك مع الله يكون أكثر، وثقتك به تكون أكبر.

أعجز الناس

إذا كان الأمر كذلك، فلماذا يتوانى الإنسان عن الدعاء؟

هناك خطٌّ مفتوح لمخاطبة الله تعالى، في أيّ وقت ولأيّ شيء، ورد عن النبي صلى الله عليه وآله: «إنّ أعجز الناس من عجز عن الدعاء»[٢]. في بعض الأحيان يرى الإنسان أنّ الأمر قد انتهى، فما عاد يجدي الدعاء، لكن النصوص تشير إلى أهمية استمرار الدعاء، فلعلّ الله يوجد فرجًا ومخرجًا، أو يعطيك أمرًا آخرَ، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «اُدْعُ الله عزّ وجلّ ولا تقل إنّ الأمر قد فرغ منه، إنّ عند الله منزلة لا تنال إلّا بمسألة»[٣]. وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو»[٤].

فلماذا يبخل العبد على نفسه وعنده هذا المجال المفتوح مع ربه؟

لهذا أدعو نفسي وإخواني وأخواتي أن نأخذ هذا النهج مع الله، لننفتح أكثر على ربنا، ونطلب منه كلّ شيء لأمور الدنيا والآخرة، لنا

(١) الحسن بن الفضل الطبرسي. مكارم الأخلاق، ص٣١٧.
(٢) بحار الأنوار. ج٧٣، ص٤.
(٣) الكافي. ج٢، ص٤٦٦.
(٤) المصدر نفسه. ج٥، ص٨٣.

ولغيرنا. ولنثق بأنّ دعواتنا غير ضائعة عند خالقنا المتفضل علينا.

ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من مؤمن يدعو بدعوة إلّا استجيب له فإنّ لم يعطها في الدنيا أعطيها في الآخرة»[١].

وروى أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من مسلم دعا الله سبحانه دعوة ليس فيها قطيعة رحم ولا إثم إلّا أعطاه الله إحدى خصال ثلاث: إما أن يعجّل دعوته، وإما أن يدّخر له، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها، قالوا يا رسول الله، إذًا، نكثر؟ قال: أكثروا»[٢].

ورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال: «المؤمن من دعائه على ثلاث: إما أن يُدّخر له، وإما أن يعجّل له، وإما أن يدفع عنه بلاء يريد أن يصيبه»[٣].

(١) مسند زيد بن علي. ص١٥٦.
(٢) وسائل الشيعة. ج٧، ص٢٧.
(٣) تحف العقول. ص٢٨٠.

معطيات الدعاء ووساوس القنوط

يُعَدّ توثيق الصلة بين العباد والخالق تعالى مهمة أساس من مهام الأنبياء والقادة الإلهيين. ذلك أنها تعكس حقيقة قائمة، مفادها أنّ الإنسان مخلوق لله، وأمره بيده سبحانه، وهو مرتبط في كلّ تفاصيل حياته ووجوده بالله، فالتأكيد على هذه الصلة، إنما هو تجلية وإظهار لحقيقة واقعة، مهما غفل الإنسان عنها.

كما أنّ صلة الإنسان بربه تعبّر عن حاجة نفسية روحية، هو ذاته أحوج ما يكون لها، فهو المحتاج أولًا وأخيرًا للصلة بربّه وخالقه، لما تتقاذفه من أمواج التحدّيات والمشاكل والضغوطات المختلفة. من هنا يحتاج إلى منبع يرجع إليه ويستلهم منه، لكي يكون صامدًا ثابتًا أمام مشاكل الحياة وضغوطاتها، وليس هناك من منبع أهم وأفضل من الاتصال بالله سبحانه وتعالى. وحيثما تعمّقت صلة الإنسان بربه كان أقدر على مواجهة الضغوط والأزمات، لما في ذلك من لجوء واتّكاء على القوة المطلقة القادرة المهيمنة على الكون والحياة، وهذا ما يمنح الإنسان الصمود والثقة والاطمئنان.

وتمثل الأزمات الشديدة أكثر الأوقات التي يحتاج فيها الإنسان إلى التواصل مع الله سبحانه وتعالى. حيث لا يحتاج الإنسان في الشدائد إلى من يذكره بربه، إذ يكفيه الشعور بالأزمة، وتزايد الضغط والتحدّي، إلى الاندفاع واللجوء ذاتيًا نحو خالقه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا..﴾، ومضمون الآية الشريفة: أنه عندما تنزل بالإنسان النازلة، فإنه يندفع بذاته للبحث عمّن يلجأ إليه، في سبيل الخروج من تلك النازلة، فلا يجد أقرب إليه من الله سبحانه وتعالى.

الاتصال بالله وضبط السلوك

إنّ الاتصال بالله تعالى عامل أساس في ضبط مسيرة الإنسان وسلوكه. فالإنسان عرضة على نحو دائم لسيطرة الشهوات، والاستسلام للرغبات غير المنضبطة، لتأتي حينها الصلة بالخالق تعالى فتبعث في نفسه الجانب المقابل للنزعات الشهوانية، ألا وهو جانب القيم والميول الفطرية الوجدانية الخيرة.

ويعتبر الدعاء من أبرز وسائل التواصل المباشر مع الله جلّت قدرته. إذ يقوم الدعاء، أكثر من أيّ عبادة أخرى، بمهمة تعزيز التواصل بين العبد وربه، لما ينطوي عليه من شعور عميق بحاجته إلى ربه، وادراكه وتسليمه التام بأنّ كافة الأمور بيده سبحانه. من هنا كان الدعاء من أهمّ العبادات، وضمن هذا السياق نفهم ما ورد عن رسول الله ﷺ حين قال: «الدعاء مخّ العبادة»[1]، أي إنّ الدعاء يمثل جوهر العبادة،

(١) بحار الأنوار. ج٩٠، ص٣٠٠.

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «أحبّ الأعمال في الأرض إلى الله الدعاء»[١]؛ لأنّ الدعاء يعني في جوهره التعبير عن صميم الحاجة، وإدراك الأهمية للصلة بالخالق تعالى.

لقد شددت مختلف الشرائع السماوية على الاهتمام بالدعاء. ولطالما ورد الحثّ على توجه الإنسان إلى بارئه بالدعاء في كلّ حين، وعند كلّ شأن من شؤونه، وقد ورد في الحديث القدسي عنه تعالى مخاطبًا أحد الأنبياء: «يا موسى، سلني كلّ ما تحتاج إليه حتى علف شاتك، وملح عجينك»[٢]، وذلك في إشارة إلى أهمية التعلق به تعالى في أصغر الأمور وأكبرها، التي لا يتسنّى للإنسان بلوغها إلّا بقدرة الله ورحمته، حتى وإنْ كان بمقدار استنشاق الهواء!، لذلك لا بُدّ أن يستحضر الإنسان في نفسه هذه الحالة دائمًا وأبدًا.

زين العابدين وأدعيته الملهمة

لقد كان الإمام عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام من القادة الإلهيين، الذين اهتمّوا أشدّ الاهتمام بمسألة الدعاء. وهذا لا ينتقص على أيِّ نحوٍ من اهتمام سائر الأنبياء والأئمة والأولياء بالدعاء، غير أنّ ظروف كلّ نبيّ أو إمام ربما تدفع باتجاه إبراز بُعد مُعيِّن من الأبعاد، وقد برز الدعاء كأحد أبرز الأبعاد في حياة الإمام زين العابدين عليه السلام. لذلك ترك الإمام للأمة بل للبشرية من بعده تراثًا روحيًّا عظيمًا، متمثلًا في

(١) بحار الأنوار. ص٢٩٥.
(٢) المصدر نفسه. ج٩٠، ص٣٠٣.

الأدعية الرائعة المروية عنه ﷺ، ومن أبرزها أدعية الصحيفة السجادية.

وقد احتوت هذه الصحيفة على أغراض وأبعاد روحية متعددة. فهناك الأدعية التي غرضها التقرب من الله تعالى ونيل رضاه ومغفرته ورحمته، وهناك في الصحيفة من الأدعية التي غرضها تحصيل المكاسب الأخروية، لينال الإنسان المقام الرفيع والنعيم الكبير الذي أعدّه الله تعالى للمتقين في الآخرة. حيث يتوسل الإنسان المؤمن بالدعاء، مدركًا أنّ ما يتحصل عليه برحمة الله ولطفه، هو أكثر مما يناله ويستحقه عن جدارة واستحقاق لقاء عمله، ذلك أنه مهما عمل العبد يبقى مقصّرًا تجاه خالقه عزّ وجلّ، ولا ينال أعظم جوائزه في الآخرة إلّا برحمة الله وجوده وكرمه.

كما تنطوي الصحيفة على غرض ثالث من أغراض الدعاء، وهو بُعد السّمو في آفاق الفضائل والمكارم، وذلك ما يبدو جليًّا في العديد من الأدعية، سيّما دعاء مكارم الأخلاق، الذي حوّل القيم الأخلاقية إلى مطالب ينبغي للإنسان السعي إلى تحصيلها، وطلب توفيق الخالق جلّت قدرته لها، الأمر الذي يعزّز دون شك اندفاع المرء باتجاه تلك القيم.

كما حفلت أغراض الدعاء في الصحيفة السجادية بجانب الاهتمام بالمصلحة العامة. وخاصة تلك المتعلقة بأوضاع الأمة وأحوال البشرية كافة، على غرار الدّعاء لأهل الثغور ومن فقراته: «أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ، وَحَصِّنْ ثُغُورَ الْمُسْلِمِينَ بِعِزَّتِكَ، وَأَيِّدْ حُمَاتَهَا

بِقُوَّتِكَ، وَأَسْبِغَ عَطَايَاهُمْ مِنْ جِدَتِكَ»[1]، وهذه بأجمعها من أغراض المصلحة العامة.

إلى ذلك ورد في أدعية الصحيفة أيضًا أغراض متعلقة بمعالجة المشاكل الطارئة التي قد تنتاب الإنسان في مختلف مفاصل حياته، من حالات المرض، وقضاء الحاجات، وحلّ المشاكل، وما إلى ذلك من أغراض ينبغي أن يتوجه فيها الإنسان إلى بارئه لتحقيق خير، أو دفع بلاء.

استعجال إجابة الدعاء

ليس من العيب أن يلجأ الإنسان إلى خالقه، لسؤاله تعالى تحقيق جميع مطالبه بالمطلق. بل العكس هو الصحيح، حيث يحبّ سبحانه وتعالى عباده الذين يلجأوون إليه في كلّ صغيرة وكبيرة، لما في ذلك من تعزيز العبودية، والخضوع لله تعالى في نفس الإنسان.

غير أنّ من أشدّ الأمور خطورة، هو إمكانية تسلل وساوس الشيطان لنفس الإنسان، ذلك أنه قد لا يلمس تحقق بعض مطالبه المتعلقة بمصالح عاجلة وآنية، كأن يكون المرء واقعًا تحت ضغط الحاجة الملحّة، أو الكربة الشديدة، أو المرض العضال، ليتجه حينها إلى الإلحاح والمبالغة في الدعاء، مستعجلًا حلّ مشكلته، وتحقيق مطالبه، وفي حال تأخر الإجابة، تحضر في هذه اللحظة تحديدًا وساوس الشيطان، التي ربما بلغت بالإنسان حدّ التشكيك في صدق

(١) الصحيفة السجادية، وكان من دعائه عليه السلام لأهل الثغور، ص١٢٤.

وتحقق الوعد الإلهي، الوارد في الآية الكريمة: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، أو الوساوس التي ربما أصيب معها الإنسان باليأس جرّاء تأخر الاستجابة.

ومما يحضرني في هذا الصدد، قول مريض زرته ذات مرة، وعندما دعوت له الله تعالى بالشفاء العاجل، أعرب صراحة عن يأسه، قائلًا بأنه لا يظنّ أنّ ثمة فرصة للشفاء مع هذا المرض!. وهذا للأسف باب من أبواب اليأس والقنوط من رحمة الله، وما للإنسان وذاك، فهل المرض والشفاء بيده هو حتى يقنط عندما تعجزه الحيلة!، أوليس كلّ ذلك بيد ربّ العالمين؟ ولطالما رأى الناس من حالات الشفاء من الأمراض المهلكة، لدى من شارفوا على الموت، مما لا يُعَدّ ولا يحصى، وذلك عندما اقتضت حكمة الله أن يظهر قدرته أمام عباده. فلا مفرّ من المصائب، إلّا أنّ الله تعالى برحمته يستنقذ الإنسان منها، وهذا مما لم يعد يخفى على الناس.

لقد اتّجه الإمام زين العابدين عليه السلام إلى قطع الطريق على وساوس الشيطان التي قد تنتاب الداعين لله سبحانه. فقد ورد عنه عليه السلام أنه قال: «المؤمن من دعائه على ثلاث، إمّا أن يُدّخر له، وإمّا أن يُعجّل له، وإمّا أن يدفع عنه بلاءً يريد أن يصيبه»[1]، وبذلك يقرّر الإمام عليه السلام أنّ الدعاء سيعود على الإنسان بالمكاسب في جميع الحالات، ومهما كان شكل النتيجة التي يجنيها الإنسان من وراء ذلك. فبحسب الإمام عليه السلام أنّ

(١) بحار الأنوار. ج٧٥، ص١٣٨، حديث ١٨.

الدعاء على ثلاثة أوجه:

- **أولاها**: إنْ لم تظهر الاستجابة لدعاء الإنسان عاجلًا، فهو مدّخر له، أي إنّه سبحانه يدّخر لعباده من الإجابة ما هو خير لهم من ذلك، وبذلك يكون الدعاء هنا أشبه ما يكون بالرصيد المحفوظ للإنسان عند الله تعالى، إنْ على صعيد الحاجات الدنيوية أم العوائد الأخروية. لأنّ الله وحده أعلم بمختلف جوانب المصلحة والمنفعة في حياة العباد، وبيده تعالى أن يحقق هذا أو ويدّخر ذاك.
- **الوجه الثاني**: هو أن يعجل الخالق سبحانه الإجابة، فيحقق للعبد مراده ويستجيب لطلبه.
- **الوجه الثالث**: فقد تقتضي الحكمة الإلهية ألّا يحقق الخالق تعالى مراد العبد عاجلًا، إلا أنّه في مقابل ذلك قد يدفع عنه البلاء الذي يوشك أن يحيق به.

المناجاة انفتاح على الله تعالى

ما أحوج الإنسان دائمًا وأبدًا إلى مراجعة ذاته، أن يراجع سلوكه ومواقفه وممارساته؟ لا تأخذه العزة بالإثم، فحينما يجد في ذاته خطأ ما لا ينبغي له أن يتردد في التراجع عنه. المشكلة أنّ الكثير منّا يسترسل على ما تعود عليه. الإنسان له إرادة، فلماذا يبقى أسير عادة معينة، وموقف ما؟

اتخاذ القرار الصائب، والموقف السديد يحتاج حسن مراجعة. فكيف يستطيع الإنسان أن يخلق ظروفًا تعينه على المراجعة؟

الإمام الباقر عليه السلام يجيب عن ذلك بقوله: «تعرّض للرحمة وعفو الله، بحسن المراجعة. واستعن على حسن المراجعة بخالص الدعاء، والمناجاة في الظُلَم»[1].

المناجاة مفردة مبتكرة في الإسلام، وهي تعني المَسارّة. أي أن تخاطب شخصاً بحيث لا يسمعك أحد. الإسلام استخدم هذه المفردة في الحديث مع الله عزّ وجلّ، أن يتكلم العبد مع ربه وليس

(١) تحف العقول. ص٢٨٦.

معه أحد. هذا هو الأصل، وقد تطلق مفردة المناجاة على أيِّ حديث مع الله عزّ وجلّ.

ويؤكد الإمام على أفضل أوقات المناجاة وهي الليل (الظُلم). وهي تجربة الأنبياء والأئمة. كانوا يختلون بأنفسهم في جوف الليل، يبوحون لله عزّ وجلّ بما في نفوسهم، ويخاطبونه مباشرة. كما يخاطب الإنسان غيره من البشر بشكل مباشر.

لذة المناجاة

المناجاة تجربة روحية عظيمة، لكنها تحتاج إلى تهيؤ، وهو الذي يشعر العبد بلذيذ المناجاة، وبدونها لا لذة لها ولا طعم. هذا التهيؤ يكون قبل الولوج في المناجاة كحسن المكسب، وحلّية المأكل والمشرب، والاجتناب عن الكبائر، وغيرها. وكذلك بالإقبال على الله تعالى.

وعن برمجة المناجاة ضمن البرنامج اليومي في حياة الإنسان يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «للمؤمن ثلاث ساعات: فساعة يناجي فيها ربه، وساعة يرُم معاشه، وساعة يخلّي بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويجمُل»[1]. يعني أنه يوميًا لا بُدّ أن يكون لنا وقت للمناجاة.

لهذا يؤكد الإمام زين العابدين عليه السلام في دعائه لله عزّ وجلّ: «اللهم احملنا في سفن نجاتك، ومتّعنا بلذيذ مناجاتك، وأوردنا حياض حبّك، وأذقنا حلاوة ودّك وقربك». كما نتشوق للحديث مع حبيب

(١) نهج البلاغة. حكمة ٣٩٠.

حتى ننشغل عمّن حولنا منصرفين له، فإنّ هذا الأمر أولى أن يكون في حال التخاطب مع الله عزّ وجلّ. وهذا ما دأب عليه الأولياء والصالحون. «وزيّن لي التفرد بمناجاتك بالليل والنهار» كما يقول الإمام زين العابدين عليه السلام.

وبالإضافة إلى ما في مناجاة الله من لذة وراحة، ومن إقبال العبد على ربه، فإنّ الله عزّ وجلّ يقبل على عبده أكثر، ويفتح له أبوابه ليطلب ما يشاء. جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ العبد إذا تخلى بسيّده في جوف الليل المظلم وناجاه أثبت الله النور في قلبه، فإذا قال: يا ربّ، ناداه الجليل جلّ جلاله: لبيك عبدي سلني أعطك، وتوكل عليَّ أكفك». ثم يقول جلّ جلاله للملائكة: «ملائكتي، انظروا إلى عبدي قد تخلّى بي في جوف الليل المظلم والباطلون لاهون، والغافلون ينامون، اشهدوا أني قد غفرت له»[1].

لذا علينا أن نحرص ألا نفوّت أوقات المناجاة على أنفسنا. فكيف يقبل الإنسان على نفسه أن يلتقي الناس، ويقضي جلّ وقته في الحديث معهم، ويحرم نفسه من مناجاة الله تعالى؟

كيف يسمح لنفسه أن تمرّ عليه مثلًا ليلة من ليالي شهر رمضان دون أن يختلي بربه ويناجيه؟ وهو شهر ينبغي أن تكون فيه انطلاقتنا نحو مراجعة الذات، وتغييرها. فأيّ فرصة أفضل من هذه الفرصة؟ الأئمة الكرام عليهم السلام مع مكانتهم السامية عند الله تعالى، ما كانوا يتركون مناجاة الله والسهر لطاعته، بل لولا هذا الأمر لما نالوا واستحقوا هذه المكانة.

(١) الأمالي. ص٣٥٤.

عن أبي الدرداء: قال: شهدت علي بن أبي طالب بشويحطات النجار، وقد اعتزل عن مواليه واختفى ممن يليه واستتر بمغيلات النخل، فافتقدته وبعد على مكانه، فقلت: لحق بمنزله، فإذا أنا بصوت حزين ونغمة شجي وهو يقول: «إلهي كم من موبقة حلمت عن مقابلتها بنقمتك، وكم من جريرة تكرمت عن كشفها بكرمك، إلهي إن طال في عصيانك عمري وعظم في الصحف ذنبي فما أنا مؤمل غير غفرانك، ولا أنا براجٍ غير رضوانك».

فشغلني الصوت، واقتفيت الأثر، فإذا هو علي بن أبي طالب عليه السلام بعينه، فاسترت له وأخملت الحركة، فركع ركعات في جوف الليل الغامر، ثم فرغ إلى الدعاء والبكاء، والبث والشكوى، فكان مما ناجى به الله تعالى أن قال: «إلهي، أفكر في عفوك، فتهون عليَّ خطيئتي، ثم أذكر العظيم من أخذك، فتعظم عليَّ بليتي».

ثم قال: «آهٍ إن أنا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها، وأنت محصيها، فتقول: خذوه، فياله من مأخوذ لا تنجيه عشيرته، ولا تنفعه قبيلته ولا يرحمه الملأ إذا أذن فيه بالنداء».

ثم قال: «آهٍ من نار تنضج الأكباد والكلى، آهٍ من نار نزاعة للشوى، آهٍ من ملهبات لظى».

قال أبو الدرداء، ثم أمعن في البكاء، فلم أسمع له حسًّا، ولا حركة[1].

هكذا تكون المناجاة مع الخالق عزّ وجلّ.

---

(١) بحار الأنوار. ٤١، ص١١.

الاستخفاف بالصلاة

الصلاة صلة بين العبد وربه، وهي مظهر لاستجابته لأمر الله سبحانه وتعالى، ومظهر لالتزامه بالدين، فالتارك للصلاة غير ملتزم بدينه، كما أنها فرصة الإنسان لأداء واجب الشكر للمولى عزّ وجلّ على نعمه عليه، ولإبراز خضوعه لربه.

لهذا جاءت النصوص الدينية التي تؤكّد أهمية الصلاة ومكانتها، فهي (عمود الدين)[1] كما ورد عن النبي ﷺ، وفي حديث آخر عنه ﷺ: «إنما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد»[2]. والصلاة هي أول ما يجب تعلّمه من الدين. كان رسول الله ﷺ أول ما يعلم من يدخل في الإسلام الصلاة. وهي أول ما يحاسب به الإنسان يوم القيامة، كما ورد في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «إن أول ما يحاسب به العبد الصلاة، فإن قبلت قبل ما سواها»[3]. من هنا فإنّ من يترك

(١) محمد بن الحسن بن علي الطوسي. تهذيب الأحكام. ج ٢، ص ٢٣٧، حديث ٩٣٦.

(٢) سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني. المعجم الأوسط، ج ٢، ص ٣٨٣.

(٣) الكافي. ج ٣، ص ٢٦٨، حديث ٤.

الصلاة عمدًا يكون خارج إطار الدين، كما ورد عنه ﷺ: «ما بين الكفر والإيمان إلّا ترك الصلاة»[١]. وإذا كان معظم المسلمين يؤدون هذه الشعيرة العظيمة إلّا أنّ هناك مشكلة تناولتها النصوص والأحاديث وهي الاستخفاف بالصلاة.

قد يؤدي الإنسان صلاته ولكن يستخفّ بها، والاستخفاف بالصلاة ذنب عظيم حذّرت النصوص الدينية منه، ومن ذلك ما جاء بسندٍ حسن عَنْ أَبِي بَصِيرٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اَللَّهِ عليه السلام قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّـهِ ﷺ: «لاَ يَنَالُ شَفَاعَتِي مَنِ اِسْتَخَفَّ بِصَلاَتِهِ، وَلاَ يَرِدُ عَلَيَّ اَلْحَوْضَ»[٢]. فماذا يعني الاستخفاف بالصلاة؟

الاستخفاف بالصلاة مظاهر وتجلّيات

تأخير أداء الصلاة من دون عذر. لكلّ صلاة وقت بداية ونهاية، فصلاة الصبح من طلوع الفجر الصادق إلى طلوع الشمس، وصلاة الظهرين من الزوال إلى الغروب، وصلاة العشاءين من المغرب إلى منتصف الليل. الصلاة كتاب موقوت، والمسلم ينبغي أن يبادر لأدائها في أول وقتها، إلّا أن يكون له عذر في التأخير، فيؤجّل أداء صلاته ضمن وقت الصلاة وليس خارجه. فمن يتساهل من دون عذر، ويتشاغل بأشياء أخرى ليست ضرورية من حيث التوقيت، فإنّ ذلك مظهر للاستخفاف بالصلاة.

---

(١) بحار الأنوار. ج ٧٩، ص ٢١٧، حديث ٣٣.
(٢) تهذيب الأحكام. ج ٩، ص ١٠٦، حديث ١٩٢.

ليس كلّ عمل يبرر تأخير الصلاة لأجله، وكما قيل: لا تقل للصلاة عندي عمل بل قل للعمل عندي صلاة، أعطِ الصلاة أولوية.

قد يكون الإنسان مستمرًّا في الحديث مع زملائه، فيدخل وقت الصلاة، ويستمر كأن لم يحدث شيء. أو يشاهد التلفاز، أو يقرأ كتابًا أو جريدة، ولا يؤدي الصلاة إلّا بعد أن ينهي ذلك البرنامج.

وقد يؤدي بعض المؤمنين أعمالًا دينية كقراءة دعاء، أو حتى تلاوة قرآن، أو زيارة مرقد ديني، أو مشاركة في موكب عزاء، فيحين وقت الصلاة ويستمر في عمله بحجة أنّ ما يعمله عمل ديني. هذا غير صحيح، ينبغي أن تكون للصلاة أولوية على كلّ عمل. مع الأسف الشديد حتى في العتبات المقدسة تلحظ هذا الأمر، الناس يصلون جماعة، وهو جالس يكمل قراءة الزيارة! الإمام الذي تزوره يريد منك أداء الصلاة في وقتها، لن ترضيه بالزيارة وأنت تؤخّر صلاتك.

لا شيء يكون له أولوية على الصلاة وقت دخولها إلّا في موارد الضرورة. فعن عبد الله بن مسعود، قال: سألت رسول الله ﷺ: أيّ العمل أفضل؟ قال: «الصلاة في أول وقتها»[1]. وورد عنه ﷺ: «الوقت الأول من الصلاة أفضل من الوقت الآخر، كفضل الآخرة على الدنيا»[2]. وعن علي عليه السلام: «ليس عمل أحبّ إلى الله عزّ وجلّ من الصلاة، فلا يشغلنكم عن أوقاتها شيء من أمور الدنيا، فإنّ الله

(١) المستدرك على الصحيحين. أول كتاب الصلاة، ج١، ص ٣٠٠، حديث ٢ (٦٧٥).

(٢) كنز العمال. ج ٧، ص ٣٦٠، حديث ١٩٢٦٤.

عزّ وجلّ ذمَّ أقوامًا وقال: ﴿الذين عن صلاتهم ساهون﴾. يعني أنهم غافلون، استهانوا بأوقاتها»[١]. وعن الإمام علي الرضا عليه السلام: «إذا دخل الوقت عليك فصلّها فإنك لا تدري ما يكون»[٢].

الإنسان حينما يدخل على أبيه أو مديره أو أيّ شخص له مكانة عنده، فإنه يبادر بتحيته، ولو جلس واشتغل بأمر ما، ثم أدّى تحيته، عُدَّ ذلك استخفافًا بالشخص الموجود. وهكذا حينما يدخل وقت الصلاة فأنت مدعو للقاء الله تعالى فلا تنشغل عن الله بأيِّ شيءٍ آخر.

التثاقل في أداء الصلاة

من مظاهر الاستخفاف بالصلاة أداؤها بتثاقل وكسل. كأنه يلقي عبئًا عن عاتقه، كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «يا بلال، أرحنا بالصلاة»[٣]. وقد عبّر عنها بقرة العين، فقال: «وقرة عيني في الصلاة»[٤]. الإنسان ينبغي أن يقبل على الصلاة بشوق ونشاط. إنّ الله يصف المنافقين بأنهم يقومون للصلاة كسالى، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّـهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ﴾. هذا من علامات النفاق، ورد عن علي عليه السلام: «تكاسل المرء في الصلاة من

(١) وسائل الشيعة. ج ٤، ص ١١٣، حديث ١٩.
(٢) المصدر نفسه. ج ٤، ص ١١٩، حديث ٣.
(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل. ج٥، ص٣٦٤، وفي سنن أبي داود، ج٢، ص٤٧٤: يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها.
(٤) بحار الأنوار. ج٧٣، ص١٤١، حديث ٨.

ضعف الإيمان»[١].

وقد يؤدي الصلاة في وقتها، لكنه لا يهتم بمعرفة أحكامها، ولا بكيفية أدائها الأداء الصحيح. ومن مظاهر ذلك العجلة في أدائها، وخاصة إذا كانت على حساب الطمأنينة، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا قام العبد في الصلاة فخفف صلاته قال الله تبارك وتعالى لملائكته: أما ترون إلى عبدي كأنه يرى أنّ قضاء حوائجه بيد غيري، أما يعلم أن قضاء حوائجه بيدي؟!»[٢] كلّ حياتنا بيد الله، فلماذا نستعجل ونحيف على أحكام صلاتنا؟ ولنتأمل الرواية التالية عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «دخل رجلٌ مسجدًا فيه رسول الله صلى الله عليه وآله فخفف سجوده دونما ينبغي ودونما يكون السجود ودون ما يكون من السجود، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: نقرٌ كنقر الغراب لو مات على هذا مات على غير دين محمد»[٣]. أداء الصلاة ينبغي أن يكون بطمأنينة وإتقان، هذا ما تأمرنا به تعاليم الدين، لا شيء أهمّ من الصلاة حين يحين وقتها، وكلّنا نسمع ما ورد عن علي عليه السلام أثناء حرب صفين كان مشتغلًا بالحرب، لكنه كان يراقب وقت الصلاة، بالرغم من أهمية الجهاد والمعركة، فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين، ما هذا الفعل؟ قال: أنظر إلى الزوال حتى نصلي، فقال له ابن عباس: وهل هذا وقت الصلاة؟ إنّ عندنا لشغلًا بالقتال

(١) الشيخ محمّد الريشهري. الصلاة في الكتاب والسنة، ص١٢١ عن كتاب: اثنا عشرية في المواعظ العددية، ص٢٠.
(٢) الكافي. ج٣، ص٢٦٩.
(٣) بحار الأنوار. ج٨١، ص٢٣٤، حديث ٨.

عن الصلاة، فقال ﷺ: على ما نقاتلهم؟ إنما نقاتلهم على الصلاة»[١].

ونختم بهذا الحديث الذي يُحذّر من الاستخفاف بالصلاة، عن أبي بصير قال: دخلت على أم حميدة، ـ أم الإمام الصادق ـ أعزّيها بأبي عبدالله الصادق ﷺ فبكت، وبكيت لبكائها، ثم قالت: يا أبا محمد، لو رأيت أبا عبدالله ﷺ عند الموت لرأيت عجبًا. فتح عينيه ثم قال: اجمعوا لي كلّ من بيني وبينه قرابة. قالت: فلم نترك أحدًا إلّا جمعناه، قالت: فنظر إليهم، ثم قال: «إنّ شفاعتنا لا تنال مستخفًا بالصلاة»[٢].

هذه آخر وصية إمام لأقربائه. لذلك على كلّ مؤمن وخاصة كلّ موالٍ لأهل البيت ﷺ أن يهتم بأداء الصلاة في أول وقتها، كما ورد عن الصادق ﷺ قال: «امتحنوا شيعتنا عند مواقيت الصلاة كيف محافظتهم عليها»[٣]. هذا هو أهم مظهر من مظاهر الولاء والاتباع لأهل البيت ﷺ.

الجمعة ثراء روحي وتواصل اجتماعي

متطلبات الحياة تفرض اهتماماتها على الإنسان، وتجعله مشغول الذهن والوقت، فهو يعمل ويكدح ويتابع الأمور المتعلقة بإدارة شؤون حياته الفردية والاجتماعية، وهو أمر مشروع ومطلوب شرعاً وعقلاً، وبذلك ينال الأجر والثواب من الله تعالى، كما ورد عن الإمام الصادق ﷺ: «الْكَادُّ عَلَى عِيَالِهِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اَللَّـهِ»[٤].

(١) وسائل الشيعة. ج ٤، ص ٢٤٦.
(٢) بحار الأنوار. ج ٨١، ص ٢٣٤، حديث ١٠.
(٣) المصدر نفسه. ج ٦٥، ص ١٤٩، حديث ١.
(٤) الكافي. ج٥، ص٨٨، حديث١.

لكنّ الإنسان في غمرة انشغالات الحياة، قد يغفل عن الجانب الروحي والنفسي في شخصيته، مما قد يعرّضه للخواء والضعف الروحي، وإذا أصاب الوهنُ روح الإنسان، فإنّ ذلك يشكّل خطورة كبيرة على شخصيته، ولن تعوّضه وفرة إمكاناته المادية؛ لأنّ صحة النفس وسلامة الروح أهم وأولى من الحالة المادية والجسمية.

يتحدث العالم اليوم عن أهمية الصحة النفسية وضرورة العناية بهذا الجانب من حياة الإنسان، وفي كلّ سنة يُحتفل باليوم العالمي للصحة النفسية، في العاشر من شهر أكتوبر، ويتم في هذا اليوم الحديث المكثف ضمن المؤتمرات والكتابات عن أهمية الصحة النفسية، وإلفات نظر الناس إلى أنّ الرفاه المادي والصحة الجسمية ليست هي كلّ شيء في حياة الإنسان، فلا بُدّ من العناية بالجانب النفسي.

وقد ذكرت منظمة الصحة العالمية في إحصائية لها (عام ٢٠٠٢) أنّ (١٥٤مليون) شخص في العالم يعانون من مرض الاكتئاب، وهو واحد من الأمراض النفسية، وهناك أمراض نفسية أخرى متعددة.

وزارة خاصة لمواجهة الانتحار

نظراً لتفشي حالات الانتحار في بريطانيا، اضطرت الحكومة البريطانية إلى استحداث وزارة خاصة لمواجهة الانتحار، وذلك لأول مرة في السياسة الدولية، حيث تشير الإحصاءات في بريطانيا إلى انتحار أربعة آلاف وخمس مئة شخص سنوياً![1]

(١) https://www.bbc.com/arabic/world-45812029

وقد استضافت بريطانيا قبل يومين بتاريخ ١٠ أكتوبر ٢٠١٨م مؤتمراً بعنوان (قمة عالمية للصحة النفسية)، حضره مندوبون من خمسين دولة، مما يدلل على أهمية وخطورة هذا الجانب في حياة الإنسان.

كيف ولماذا يقدم الإنسان على الانتحار؟!

إنسان يعيش في بلد مرفه، تتوفر لديه كلّ متطلبات الرفاه، فلماذا يقدم على الانتحار؟!

إنه التأزم النفسي والحالة الروحية التي تصل إلى حدّ الخواء، مما يدفع الإنسان إلى الانتحار!

ولذلك تتحدث المعلومات عن تميّز وضع الجاليات الإسلامية في أوروبا عن محيطها الاجتماعي، بقلة حالات الانتحار وقلة الأمراض النفسية.

فالجانب الروحي أمر مهم في شخصية الإنسان وحياته، فلا ينبغي تجاهله بحال، وإذا كان الإنسان يصرف الوقت والجهد للاهتمام بتوفير المتطلبات المادية والمعيشية والرفاهية، فعليه إلى جانب ذلك أن يهتم بالبرامج الروحية والعلاقات الاجتماعية، التي تعطيه حيوية نفسية وروحية.

البرامج العبادية في الإسلام

يهتم الدين بالبرامج العبادية اهتماماً بالغاً، فهي مصدر إثراء روح

الإنسان وحيويته، عن طريق توثيق صلته بالله سبحانه وتعزيز علاقته بالغيب والقدرة المطلقة.

خصوصية الجمعة

في الإسلام برنامج عبادي يومي، يتمثل في إقامة الصلوات الخمس، وهي تواصل عبادي روحي بين العبد وربه، وإلى جانب هذا البرنامج اليومي، اختصّ الشرع يوماً في الأسبوع، هو يوم الجمعة، ليكون المحطة الأبرز، للتزود من الوقود الروحي المعنوي والتواصل الاجتماعي، ضمن الأجواء الدينية الإيجابية.

في كلّ يوم يرتفع نداء الصلاة ثلاث مرات، كما هو عندنا نحن الشيعة، باعتبار الجمع بين الظهرين والعشاءين، أو خمس مرات، كما عند إخواننا أهل السنة، وحينما يسمع المسلم النداء للصلاة، يستحب له أن يذهب إلى المسجد ويؤدي الصلاة جماعة، لكن بإمكانه أن يصلي في منزله بمفرده، أو يصلي في أيّ مكان يتواجد فيه، أو يؤخر صلاته، شرط ألّا يخرج وقتها، فعلى سبيل المثال وقت صلاة الظهر والعصر يتسع إلى غروب الشمس، فهناك عدة ساعات، يمكن للمسلم أن يصلي في أيّ ساعة شاء.

أما يوم الجمعة فله خصوصية تميزه عن سائر الأيام، فمن الأحكام الشرعية كراهية السفر قبل حضور الجمعة، ولهذا يُصدر الله سبحانه أمراً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ أي إذا حلَّ وقت الصلاة ورفع آذانها ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فيوم الجمعة

ليس كبقية الأيام، حيث يمكنك أن تصلي في بيتك أو مكان عملك، بل لا بُدّ من السعي إلى المسجد.

وكلمة ﴿فَاسْعَوْا﴾ تدلّ على المبادرة والسرعة، فمن الناحية الفقهية يجب أن تقترن صلاة الجمعة مع الزوال، فلو أخّرها إلى ما بعد وقت الزوال العرفي، لا تؤدى جمعة، بل تكون ظهراً.

وقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ باعتبار أنّ البيع حالة تفرض نفسها على الإنسان، كنموذج لما يمكن أن يشغل الإنسان عن الصلاة، ولا يقتصر الأمر على ترك البيع فقط بل ترك أيّ عمل آخر يزاحم السعي الى صلاة الجمعة، ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فالمبادرة إلى الصلاة لمصلحة الناس الدينية والدنيوية والاجتماعية والروحية، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لو تتأملون وتتفكرون في أهمية حضور صلاة الجمعة، لأدركتم مدى فوائد هذا السعي.

الجمعة في الحديث الشريف

إلى جانب هذه السورة المباركة في القرآن الكريم، وردت أحاديث كثيرة حول فضل يوم الجمعة ومكانته وأحكامه.

وفي كتاب (جامع أحاديث الشيعة)، وهو عدة مجلدات، يوجد ستمئة وأربعة عشر حديثاً ورواية حول صلاة الجمعة ووجوبها وأحكامها وفضلها وآدابها، وليس لدينا شعيرة من الشعائر الدينة لها هذا القدر من النصوص.

نحن نرى مختلف الشعائر التي يهتم بها المجتمع الديني، بعضها

لها عنوان عام، وبعضها لا تستند إلى روايات قوية، لكن صلاة الجمعة تختص بروايات مستفيضة.

يقول السيد الخوئي: (هي من الكثرة بمكان ومتجاوزة حدّ الاستفاضة بلا ريب، وقد أنهاها بعضهم إلى مئتي (٢٠٠) حديث، فالذي يدلّ على الوجوب بصريحه من الصحاح والحسان والموثقات وغيرها أربعون حديثاً، والذي يدلّ بظاهره على الوجوب خمسون حديثاً، والذي يدلّ على المشروعية في الجملة أعمّ من أن يكون عينياً أو تخييرياً تسعون حديثاً، والذي يدلّ بعمومه على وجوب الجمعة وفضلها عشرون حديثاً)[١].

وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «أَنْ أَدَعَ شُهُودَ حُضُورِ اَلْأَضْحَى عَشْرَ مَرَّاتٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَدَعَ شُهُودَ حُضُورِ اَلْجُمُعَةِ مَرَّةً وَاحِدَةً مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ»[٢].

(الأضحى) عيد الله الأكبر عند المسلمين وهو مرة واحدة في السنة، لكنّ الإمام يقول حسبما ورد في هذه الرواية أنّ ترك حضور الأضحى عشر مرات، أحب إليَّ من أن أدع الجمعة مرة واحدة!

مما يؤكد على أهمية حضور الجمعة.

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «يَكُونُ يَوْمُ اَلْجُمُعَةِ شَاهِداً وَحَافِظاً لِمَنْ

(١) التنقيح في شرح العروة الوثقى تقريرًا لبحث آية الله العظمى السيد أبو القاسم الخوئي، ج١، ص٢٥.
(٢) تهذيب الأحكام. ج٣، ص٢٤٧.

سَارَعَ إِلَى اَلْجُمُعَةِ ثُمَّ يَدْخُلُ اَلْمُؤْمِنُونَ اَلْجَنَّةَ عَلَى قَدْرِ سَبْقِهِمْ إِلَى اَلْجُمُعَةِ»[١].

وهناك نصوص كثيرة حول أهمية صلاة الجمعة، لكنّ المؤسف أنّ كثيراً من الناس يتساهلون في حضور صلاة الجمعة!!

إذا كان الإنسان مشغولاً طيلة أيام الأسبوع عن حضور الجماعة، فينبغي ألّا يفوّت على نفسه بركات الجمعة، وهو يوم عطلة في بلدان المسلمين.

مع أنّ حضور المصلين يوم الجمعة أفضل من سائر الأيام، ولكن قياساً إلى الكثافة السكانية يعتبر حضوراً ضئيلاً!

لماذا يتساهل الناس في حضور الجمعة؟!

هي ساعة واحدة من هذا اليوم المبارك، وهو يوم إجازة، ليس فيه ارتباط بوظيفة، لكن البعض يعلّل تقاعسه عن الحضور بالاسترخاء والكسل والنوم!

كيف تفوّت على نفسك هذه الفرصة العظيمة والثواب الكبير؟!

برنامج عائلي

ينبغي للمسلم أن يبرمج وقته، بحيث يكون حضور الجمعة برنامجاً أساساً في جدوله لهذا اليوم، ولا يجعله شيئاً ثانوياً، فيسترسل في النوم أو ينشغل بأمور المنزل أو الترفيه.

---

(١) وسائل الشيعة. حديث ٩٦٤٩.

وليكن هذا البرنامج لكلّ أفراد العائلة، بحيث يتهيأ الجميع ويبادرون للاستعداد والتخلص مما يعيقهم عن الحضور، خصوصاً ونحن نعيش هذه المرحلة من حياة مجتمعنا تطوراً ملحوظاً في بناء المساجد وسعتها، مع جود مكان مخصص للنساء، ونأمل أن يتوفر في كلّ مسجد مكان مخصص للأطفال، ينشغلون فيه ويتعلمون المسائل الدينية التربوية، فيعيش الجميع هذه الأجواء الدينية العبادية الاجتماعية، فهي فرصة لا ينبغي للإنسان المؤمن أن يفوّتها على نفسه وعائلته، ونحن نقرأ في دعاء يوم الجمعة من أدعية الصحيفة السّجادية عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «وَوَفِّقْنِي لأَداءِ فَرْضِ الجُمُعاتِ وَما أَوْجَبْتَ عَلَيَّ فِيها مِنَ الطّاعاتِ وَقَسَمْتَ لأَهْلِها مِنَ العَطاءِ فِي يَوْمِ الجَزاءِ. إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ».

ينبغي للإنسان المؤمن أن يواظب على حضور صلاة الجمعة بشكل دائم، وأن يشجع الآخرين ويذكرهم بأهمية حضور صلاة الجمعة، بحيث يكون الحضور للصلاة برنامجاً ثابتاً لا يفرّط فيه، وأن يصحب معه عائلته، ليعيشوا جميعاً أجواء العبادة والتزود الروحي، والكسب المعرفي، والتواصل الاجتماعي. فهذا خيرٌ كثير لا ينبغي أن يفوتهم.

في رحاب الزمن المبارك

مشاعر الإنسان تجاه أيّ شيء من الأشياء تؤثر على تعامله مع ذلك الشيء، فمثلًا حينما يقبل عليك شخص وفي نفسك مشاعر طيبة تجاهه، تشعر بالبهجة بإقباله عليك، وتتعاطى معه تعاطيًا محترمًا؛ لأنّ في نفسك مشاعر إيجابية تجاهه. وقد يقبل عليك شخص آخر تحمل في نفسك تجاهه مشاعر سلبية، فتستعيذ بالله من الشيطان، وتشعر بانزعاج نفسي، وقد يكون الشخص الذي ارتحت للقائه ينزعج منه شخص آخر، أو الشخص الذي انزعجت للقائه، يرتاح إليه شخص آخر. ما الفارق؟

إنها نوعية المشاعر النفسية، وكذلك الأمر بالنسبة للمكان: فقد يكون مكان لديك مشاعر إيجابية تجاهه، حينما تدخله تحسّ بالسرور والبهجة، وعلى العكس من ذلك لو كان في نفسك مشاعر سلبية تجاه مكان آخر، ويُماثِلها الطعام، فحينما يتناول الإنسان طعامًا وفي نفسه مشاعر إيجابية تجاهه، فإنه يتناوله بتلذّذ، والعكس من ذلك إذا كانت مشاعره سلبية.

وكذلك الحال بالنسبة للزمن، فالنصوص الدينية تزرع في نفس الإنسان المؤمن مشاعر إيجابية تجاه عدد من المقاطع الزمنية، هي الأزمنة المباركة، ولكن هل هناك أزمنة سيئة؟

إنّ بعض الناس لديهم قناعات بأنّ هناك أزمنة سيئة، لذلك يتطيّرون منها، وهذا موجود في عادات وأعراف مختلف الشعوب، وهي في كثير من حالاتها ناشئة من خرافات وأساطير.

الخرافة في التعامل مع الأزمنة

الإيرانيون مثلًا، تسود في أوساطهم الشعبية فكرة التشاؤم من اليوم الثالث عشر بداية السنة الشمسية الجديدة، لذلك يتركون بيوتهم ويخرجون إلى الحدائق والمنتزهات، هربًا من نحوسة ذلك اليوم، ويطلقون عليه اسم (سيزده بيدر)، أي الثالث عشر خارج المنزل.

وفي أوساطنا الدينية هناك تداول لقول بنحوسة بعض الأيام، وأنه ينبغي للإنسان أن يتجنّب فيها السفر والزواج والبدء بأيِّ عمل مهمّ، مثل الأيام التي يطلقون عليها (كوامل)، وهي سبعة أيام من كل شهر، (الثالث والخامس والثالث عشر والسادس عشر والواحد والعشرون والرابع والعشرون والخامس والعشرون).

وليس معروفًا سبب تسميتها بالكوامل، كما لا توجد أيّ رواية حول نحوستها وكراهة الزواج فيها.

ويرجع التشدّد في القول بنحوسة هذه الأيام إلى السيد ابن طاووس، قال الشيخ يوسف البحراني: «دلّت الأخبار على التحذير

من العمل فيها بأيّ عمل كان، ولزوم الإنسان بيته، وعدم الحركة لشدّة نحوستها، كما رواه السيد رضي الدين علي بن طاووس في كتاب الدروع الواقية عن الصادق عليه السلام»[١].

وربما استدلّ بعضهم بما ورد في القرآن الكريم من وصف أيام بالنحوسة كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾[سورة القمر، الآية:١٩]، وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾[سورة فصلت، الآية:١٦].

وقد رد السيد الطباطبائي في تفسير الميزان على هذا القول بما يلي: «لا يظهر من سياق القصة، ودلالة الآيتين، أزيد من كون النحوسة والشؤم خاصة بنفس الزمان الذي كانت تهبّ عليهم فيه الريح عذابًا، وهو سبع ليال وثمانية أيام متوالية، يستمر عليهم فيها العذاب، من غير أن تدور بدوران الأسابيع، وهو ظاهر، وإلّا كان جميع الزمان نحسًا، ولا بدوران الشهور والسنين»[٢].

وهناك روايات كثيرة تدعو الإنسان إلى التوكل على الله، والتسلح بالدعاء وتلاوة آيات القرآن، ودفع الصدقة للاحتماء من المخاوف والمخاطر، وعدم الاهتمام بما يثار حول نحوسة الأيام.

عن سهل بن يعقوب قال، قلت: للإمام علي الهادي عليه السلام: «يا سيدي، في أكثر هذه الأيام قواطع عن المقاصد، لما ذكر فيها من التحيّر

(١) الشيخ يوسف البحراني. الحدائق الناضرة، ج٢٣، الطبعة الثالثة ١٩٩٣م، (بيروت: دار الأضواء)، ص٣٩.
(٢) السيد الطباطبائي. تفسير الميزان، ج ١٩، ص ٧٤.

والمخاوف، فتدلّني على الاحتراز من المخاوف فيها، فإنما تدعوني الضرورة إلى التوجّه في الحوائج فيها، فقال لي: يا سهل، إنّ لشيعتنا بولايتنا لعصمة...، فثق بالله عزّ وجلّ، وأخلص في الولاء لأئمتك الطاهرين، وتوجّه حيث شئت، واقصد ما شئت»[١]، وفي الرواية نفي واضح لما يشاع عن نحوسة الأيام وردع عن تلكم الفكرة.

وعن الحلبي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، قال سألته: «أَيُكْرَهُ السفر في شيء من الأيام المكروهة الأربعاء وغيره»؟ قال عليه السلام: «افتتح سفرك بالصدقة واقرأ آية الكرسي إذا بدا لك»[٢].

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «من تصدّق بصدقة إذا أصبح، دفع الله عنه نحس ذلك اليوم»[٣]، فما يحتمل أن يكون في ذلك اليوم مشكلة، فالله يدفع عنه البلاء والمشاكل.

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «لا تعادوا الأيام فتعاديكم»[٤].

ويمكننا أن نفهم من الحديث أنّ الإنسان إذا تشاءم من أحد الأيام، هذا التشاؤم يخلق عنده إيحاءً، يتحوّل إلى حالة قلق وانزعاج، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تعادوا الأيام فتعاديكم».

وفي رواية جميلة عن الإمام الصادق عليه السلام حول التطير والطيرة، قال: «اَلطِّيَرَةُ عَلَى مَا تَجْعَلُهَا، إِنْ هَوَّنْتَهَا تَهَوَّنَتْ، وَإِنْ شَدَّدْتَهَا تَشَدَّدَتْ،

(١) بحار الأنوار. ج٩٢، ص١.
(٢) المصدر نفسه. ج٥٦، ص٢٨.
(٣) المصدر نفسه. ج٧٣، ص٢٣٣.
(٤) المصدر نفسه. ج ٥٩، ص ١٣٥.

وَإِنْ لَمْ تَجْعَلْهَا شَيْئاً لَمْ تَكُنْ شَيْئاً»[١].

هناك أيضًا رواية، أنه كتب أحد البغداديين إلى الإمام علي الهادي عليه السلام، يسأله عن الخروج يوم الأربعاء لا يدور ـ يعني آخر أربعاء من الشهر، وكان الناس يتشاءمون منه ـ

فأجابه الإمام عليه السلام ـ لاحظوا ما كتبه الإمام عليه السلام ـ: «من خرج يوم الأربعاء لا يدور خلافًا على أهل الطيرة وُقي من كلّ آفة، وعوفي من كلّ عاهة، وقضى الله له حاجته»[٢].

نلاحظ كيف أنّ الإمام عليه السلام يشجّع على كسر هذه الحالة، فليس هناك نص ديني ثابت، وإنما هي أعراف وعادات وإيحاءات نفسية.

بركة الزمن في الإسلام

وبدلًا من ذلك، نودّ أن نقلب الصورة فنتحدث عن بركة الزمن وبعض الأيام المباركة، وهو ما تشير إليه النصوص الدينية، من بركة بعض الأزمنة، ومنها الشهر الكريم شهر شعبان.

فهو من الشهور المباركة، وعلى الإنسان أن يتعامل مع الزمن ككائن حي، يتفاعل ويتجاوب معه، فالنصوص الدينية تريد أن تجعل لك مشاعر طيبة تجاه هذه الأزمنة، إنّ الإنسان الذي لا يلتفت إلى هذه الأحاديث والتوجيهات، لا يكترث بمجيء شهر شعبان أو ذهابه، لكن الإنسان المؤمن المطّلع على هذه النصوص، مجيء شهر شعبان يشيع

(١) الكافي. ج٨، ص١٩٨.
(٢) وسائل الشيعة. ج ٨، ص٢٦٢.

البهجة في نفسه، ويجدّد الأمل في قلبه، فينتج عن ذلك ما يلي:

- تجديد الأمل والحيوية في نفس الإنسان.
- الاقتراب إلى الله سبحانه وتعالى من خلال الأعمال الصالحة والعبادات خلال هذا الشهر الكريم.
- إصلاح الذات؛ لأنّ هذه الأزمنة المباركة هي أفضل وقت للتوبة، والاستغفار، وتصفية النفس في داخلها، وفي سلوكها الخارجي، عن الأخطاء والثغرات ونقاط الضعف.

لذلك نقرأ في دعاء شهر شعبان المأثور، الذي له إيقاع رائع على قلب الإنسان المؤمن: «اللهم صلِّ على محمد وآل محمد واعمر قلبي بطاعتك، ولا تخزني بمعصيتك، وارزقني مواساة من قتَّرت عليه من رزقك بما وسعت عليَّ من فضلك، ونشرت عليَّ من عدلك، وأحييتني تحت ظلك، وهذا شهر نبيك سيّد رسلك، شعبان الذي حففته منك بالرحمة والرضوان».

لاحظ هذه المشاعر الإيجابية تجاه هذا الشهر الكريم، حيث شعور الإنسان وإيمانه بأنه في هذا الزمن المحفوف بالرحمة والرضوان، يعمر قلبه بالأمل، ويشيع في نفسه السرور.

روى بعض أصحاب الإمام الصادق عليه السلام قوله: «أين أنتم عن صوم شعبان؟ فقلت له: يا بن رسول الله، ما ثواب من صام يومًا من شعبان؟ فقال: الجنة، والله. فقلت: ما أفضل ما يفعل فيه؟ قال: الصدقة والاستغفار، ومن تصدّق بصدقة في شعبان رباها الله تعالى كما يُربّي

أحدكم فصيله حتى يوافى يوم القيمة وقد صارت مثل أحد»[١].

الاستغفار ليس مجرد لفظ، وإنما عزم وقصد على ترك الذنوب والمعاصي، وتصحيح المسار.

والصدقة، وما أدراك ما الصدقة، إنّ الإنسان في هذا الشهر يفكّر في الناس المقترة أرزاقهم، أي الفقراء والمحتاجون.

كم من العوائل الفقيرة المحتاجة في مجتمعنا؟ هؤلاء أمانة، سيسألنا الله سبحانه وتعالى عنهم يوم القيامة، وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وَجَارُهُ جَائِعٌ»[٢].

علينا أن نهتم بالعوائل الفقيرة في المجتمع، ولا يجب أن نكتفي بدفع مبلغٍ محدودٍ من المال فقط، فهناك أصحاب خير، يتكفلون ببعض العوائل الفقيرة، لماذا لا يكون لدينا كفالة عائلة بأكملها؟ كما كان أئمتنا (صلوات الله عليهم). وكما هو دأب المؤمنين الصالحين.

تشجيع التراجع عن الخطأ

لا حدود لرحمة الله بعباده، وغفرانه لذنوبهم، وتجاوزه عن أفعالهم. إذ بخلاف تعاطي البشر مع بعضهم بعضًا، حيث يغضب الواحد أيّما غضب حين يواجهه أحدٌ بالإساءة، ويسعى إلى ردّ الإساءة إلى صاحبها، كما هو السّلوك الشائع، المنطلق من غريزة حبّ الذات والدفاع عنها.

---

(١) جامع أحاديث الشيعة. ج ٩، ص٤٥٧.
(٢) الكافي. ج٢، ص٦٦٨.

لكن هناك من الأشخاص من تتسع صدورهم، وتتسامى أخلاقهم فيقابلون الإساءة بالصفح، ولا يردون على الإساءة بالإساءة، وإن كان حقّ الردّ مشروعًا بالنسبة لهم، غير أنّ هذه الفئة من الناس ذات المناقبية العالية، ربما كان لديها في الغالب سقف محدود لتجاوز الإساءة والصفح عنها، فقد يصفح الإنسان عمّن أساء إليه مرة ومرتين وثلاث، لكن مع تكرّر الإساءة من شخص تجاه آخر، فإنّ استعداد الأخير للصفح والعفو يزداد انخفاضًا، وربما تلاشى تمامًا مع تكرر الإساءة.

إنّ هذا ما يجعلنا ندرك مدى عظمة الله تعالى، وسعة رحمته بعباده، حين يستوعبهم بلطفه دونما حدود أو قيود، مهما كان مستوى تكرر صدور الإساءة، فإذا ما أذنب العبد، ثم تاب وندم على ما فرّط في جنب الله، قبِل منه تعالى توبته، وإذا ما عاد إلى الذنب ثانية ثم تاب وندم، عاد عليه تعالى بالتوبة مرة أخرى، وكذا الحال لو تكرر ذلك ألف مرة، فلا حدود لعفو الله ورحمته.

رحمة واسعة تحتضن العباد

إنّ باب التوبة مفتوح على مصراعيه، ورحمة الله واسعة تحتضن العبد، وتستقبله، مهما بلغ وتكرر صدور الإساءة من طرفه. وهذا ما تؤكّده جملة من النصوص الدينية، التي تشجّع العبد على التوبة والتراجع عن الخطأ، فقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«إِنَّ الله عزَّ وجَلَّ يقْبَلُ توْبة العبْدِ مَا لَم يُغرْغِرِ»[١]، إنّ الله تعالى يقبل التوبة عن عباده حتى لو جاءت في آخر لحظات حياتهم، بل وإلى اللحظة التي تسبق خروج الروح عن الجسد.

ويكفي أن نعلم أنّ الله سبحانه وتعالى، يعلن عن محبّته للتائبين، والمقلعين عن ذنوبهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾، وتأتي محبّة الله هنا حتى لو كان العبد للتوِّ قد عصى خالقه، وارتكب الذنب، ثم تاب عنه، فالله ليس بصدد العفو عن عبده المذنب وحسب، وإنّما يعلن سبحانه فوق ذلك عن محبّته لهذا العبد التائب.

وورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «التَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»[٢]، وجاء في حديث نبوي آخر يقرب الصورة إلى أذهان العباد، ويظهر مدى سعة رحمة الخالق جلّ وعلا، حيث قال ﷺ: «الله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد، ومن الضالّ الواجد، ومن الظمآن الوارد»[٣]، ولنا أن نتصوّر عظيم الفرحة التي تنتاب قلب العقيم الذي يرزق بولد بعد عمر طويل، فالله تعالى لا يقلّ فرحًا بتوبة عبده من فرح هذا ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾.

والحال نفسه مع الشخص التّائه في عمق الصحراء، حيث مصيره على المحكّ، فكيف تكون فرحته حين يعثر على جماعته، أوَليس يرى

(١) سنن الترمذي. ج٤، ص٣٨٥، حديث ٣٥٣٧.
(٢) محمد ناصر الدين الألباني. صحيح وضعيف سنن ابن ماجة، ج٣، ص٣٨٢، حديث ٣٤٤٦.
(٣) كنز العمال. ج٤، ص٢٠٥، حديث ١٠١٦٥.

أنه قد عادت له الحياة، وقد ولد من جديد؟ ويمضي التشبيه النبوي في وصف قبول وفرح الخالق تعالى بتوبة عبده كفرح الظمآن الذي يجد الماء بعد ظمأٍ طويل، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾.

كيف تتحقق التوبة؟

لا بُدّ من التذكير بأنّ التوبة لا تتحقق بمجرّد التلفّظ بعبارات الاستغفار. وإنما يبقى أمر قبول التوبة مشروطًا بأمرين:

الأول: أن تنبع التوبة عن شعور حقيقي في أعماق الإنسان بالندم، والعزم على الإقلاع عن الذنب والمعصية، وإدراك فعلي لعظم ما اقترف العبد من معصية وذنب.

الثاني: تلافي التائب لآثار الذنوب والأخطاء التي اقترفها، قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[سورة المائدة، الآية: ٣٩]، فالإصلاح الوارد في الآية هو إصلاح آثار وتداعيات الذنوب والمعاصي، وخاصة تلك المرتبطة بحقوق الناس، فإذا ما أخطأ شخص بحقّ آخر، فلا يكفي أن يتلفّظ بعبارة الاستغفار وكفى، وإنما على المخطئ أن يعيد الحقّ للشخص المُعتدى عليه، سواء كان حقًّا ماديًّا أو معنويًّا. كما تعني لفظة ﴿وَأَصْلَحَ﴾ الواردة في الآية الكريمة، أن يتّجه الإنسان التائب إلى إصلاح نفسه، وأن يحيطها بأجواء

الخير والصلاح، حتى تكون توبته توبة حقيقية مقبولة، ويحظى بموجبها بمحبّة الله تعالى.

لقد شاءت الحكمة الإلهية أن يبقى باب التوبة مشرعًا على الدوام. وذلك انطلاقًا من أمرين:

الأمر الأول: معرفة الخالق لطبيعة الإنسان، وأنّ هذا الإنسان كثيرًا ما يضعف أمام شهواته وأهوائه، قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾، كما سبق في علمه سبحانه أنّ الإنسان إذا ندم وأدرك خطأه مرة، فإنّ ذلك لا يعني بالضرورة أنّ إرادته تلك باتت أكثر صلابة من ذي قبل، على نحو يعصمه من الوقوع في الخطأ مرة أخرى، ولأنه يعلم بطبيعة عباده، فلذلك يستوعبهم بلطفه ورحمته.

الأمر الثاني: طبيعة الصفات الإلهية، فمن صفاته سبحانه أنه الغفور، الرحمن، الرحيم، أوَلسنا نجد عند مفتتح كلّ سورة قرآنية قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم، ولعلّ منشأ ذلك أنّ هاتين الصفتين تحديدًا، هما مما يشيعان الأمل والرجاء في نفوس عباد الله، مهما كانت أخطاؤهم وذنوبهم التي غرقوا فيها، تحت تأثير شهواتهم وأهوائهم.

الدرس الأخلاقي

إنّ في قبوله تعالى التوبة عن عباده، أعظم درس أخلاقي يزجيه الخالق سبحانه للناس كافة. فإلى جانب الحماس والاندفاع نحو التوبة، وإدراكنا بأنّ الله تعالى يقبل التوبة، ويسع العباد برحمته بالغًا ما بلغت أخطاؤهم وذنوبهم، ينبغي أن نستفيد إلى جانب ذلك درسًا أخلاقيًّا عظيمًا، مفاده أنّ الإنسان في تعامله مع من هم حوله، وخاصة إذا كان في موضع القيادة، فإنّ عليه أن يتخلق بأخلاق الله، فهؤلاء الدعاة الذين يدعون الناس إلى الله، ويوجهونهم نحو الدين، عليهم أن يتخلّقوا بهذا الخلق، فيفتحون أمام الناس أبواب الأمل والرجاء، لا أن يكونوا قساة يبثّون القنوط واليأس في قلوب الناس، مهما أمعنوا في انحرافهم، فإنّ الدعاة إلى الله ينبغي أن يتعاطوا معهم بشفقة ورحمة، تمامًا كما كان يفعل الأنبياء والأئمة مع أقوامهم، حيث لم يكونوا يتعاملون مع العصاة بغلظة وقسوة، مهما بلغت معاصيهم.

ولعلّ خير مثال على ذلك، ما جاء في تعامل الإمام الحسين عليه السلام مع الحرّ بن يزيد الرياحي، الذي جعجع به في الطريق الى كربلاء، وأوقعه في وسط معسكر الأعداء إبّان واقعة الطّف، وبمجرّد أن أقبل الحرّ وخاطب الإمام عليه السلام قائلًا: وِانِّي تائبٌ إِلى اللهِ تعالى ممّا صنعتُ، فترى لي من ذلكَ توبةً؟، سرعان ما أجابه عليه السلام: «نَعَمْ، يَتُوبُ اللَّـهُ عَلَيْكَ»[1]، إنّ على الدعاة إلى الله أن يتخلقوا بهذا الخلق.

---

(١) الشيخ المفيد. الإرشاد، ج٢، ص١٠٠.

كما أنّ على الأهل أيضًا أن يحذوا هذا الحذو، وخاصّة في هذا الزمن، الذي يواجه فيه الأبناء والبنات تحدّيات صعبة، فهم يواجهون ضغوطًا غير مسبوقة، لم تعشها الأجيال السابقة، هذه الأجواء التي يعيش ضمنها الأبناء والبنات، ربما دفعتهم للوقوع في بعض الأخطاء والمخالفات، وهنا ينبغي للعائلة أن تستوعب أبناءها، فلا يواجهونهم بقسوة وغلظة، مهما كانت الأخطاء التي وقعوا فيها؛ لأنّ مواجهتهم بغلظة ربما دفعتهم لارتكاب ما هو أشدّ.

ولعلّ ذلك ما يفسّر جانبًا من أسباب هروب بعض الأبناء والبنات من عوائلهم، لعدم اتّساع صدر العائلة لاستيعاب أخطاء أولادها، الأمر الذي يقود إلى نتائج وخيمة على الجميع. من هنا ينبغي أن تتخلق العائلة بأخلاق الله في التعامل مع أخطاء أبنائها، فكما أنّ الله يفتح باب التوبة لعباده دائمًا وأبدًا، فكذلك العائلة أيضًا ينبغي أن تكون أبواب العودة والتراجع عن الخطأ مشرعة أمام أبنائها وبناتها.

احتضان المذنبين

وأخيرًا، ينبغي للمجتمع الديني أن يستقطب العصاة والمذنبين. ذلك أنّ الأوساط الدينية ربما تجنح نحو نبذ الذين ترى في مسلكهم انحرافًا، ولو فكّر أحد المخطئين أن يأتي للمسجد ذات يوم، فمن الصعب أحيانًا أن يجد له مكانًا في الوسط المسجدي. بل قد يُنظر إليه بارتياب وبعين شزراء، والحال أنّ الأوساط الدينية ينبغي أن تحتضن هؤلاء التائبين، وأن تظهر الفرحة بعودتهم إلى طريق الله، تمامًا كما

هي فرحة الخالق عزّ وجلّ بذلك، فالمطلوب أن يتخلق الجميع بأخلاق الله، حتى نشجّع المخطئين على التراجع عن الخطأ، وإلّا فإنّ التعامل المنفّر مع هؤلاء سيكون عاملًا مثبّطًا للعزيمة، لمن كان عندهم رغبة أو نية في التوبة والعودة عن طريق الانحراف. هذا هو الدرس الأخلاقي الذي يجب أن نستقيه من النصوص الدينية، في تأكيدها على سعة رحمة الله، وقبوله التوبة عن عباده.